مشاهد من حياة الصدّيق

محمّد المجذوب

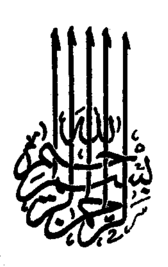
دار الارشاد

محمد المجذوب

مَشَاهِدُ مِنْ حَيَاةِ الصِّدِّيق

برهان

دار الاعتصام



دار الإعتصام

٨ شـارع حسـين حجـازى ـ تليفون ٣٦٠٣١ /٣١٧٤٨ ـ ص.ب ٤٧٠ ـ القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

مقدمة الطبعة الثالثة

من حق القارئ المؤمن على أن أقدم إليه هذه الطبعة من هذا الكتاب مصحوبة بالشكر على حسن استقباله إياه فى كلتا الطبعتين السابقتين . وإنما يدل ذلك على مدى اهتمام الجيل المسلم بأخبار سلفه الصالح ، يقيناً منه بأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها .

وحسبى من ذلك مردوداً يثلج الصدر ويضاعف الأمل بتحسن المستقبل إن شاء الله .

ولله الحمد أولا وآخراً وهو الموفق والمستعان .

المجذوب

المدينة المنورة ــ ساحة مسجد قباء

ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ

هذه الفصول

كثيرون الذين كتبوا عن الصِدّيق قديماً وحديثاً ،وكثيرون سيتولون مثل ذلك ، وستظل جوانب من هذه الشخصية العجيبة موضع البحث والتحليل لكل معجب بالعظمة والفضيلة .

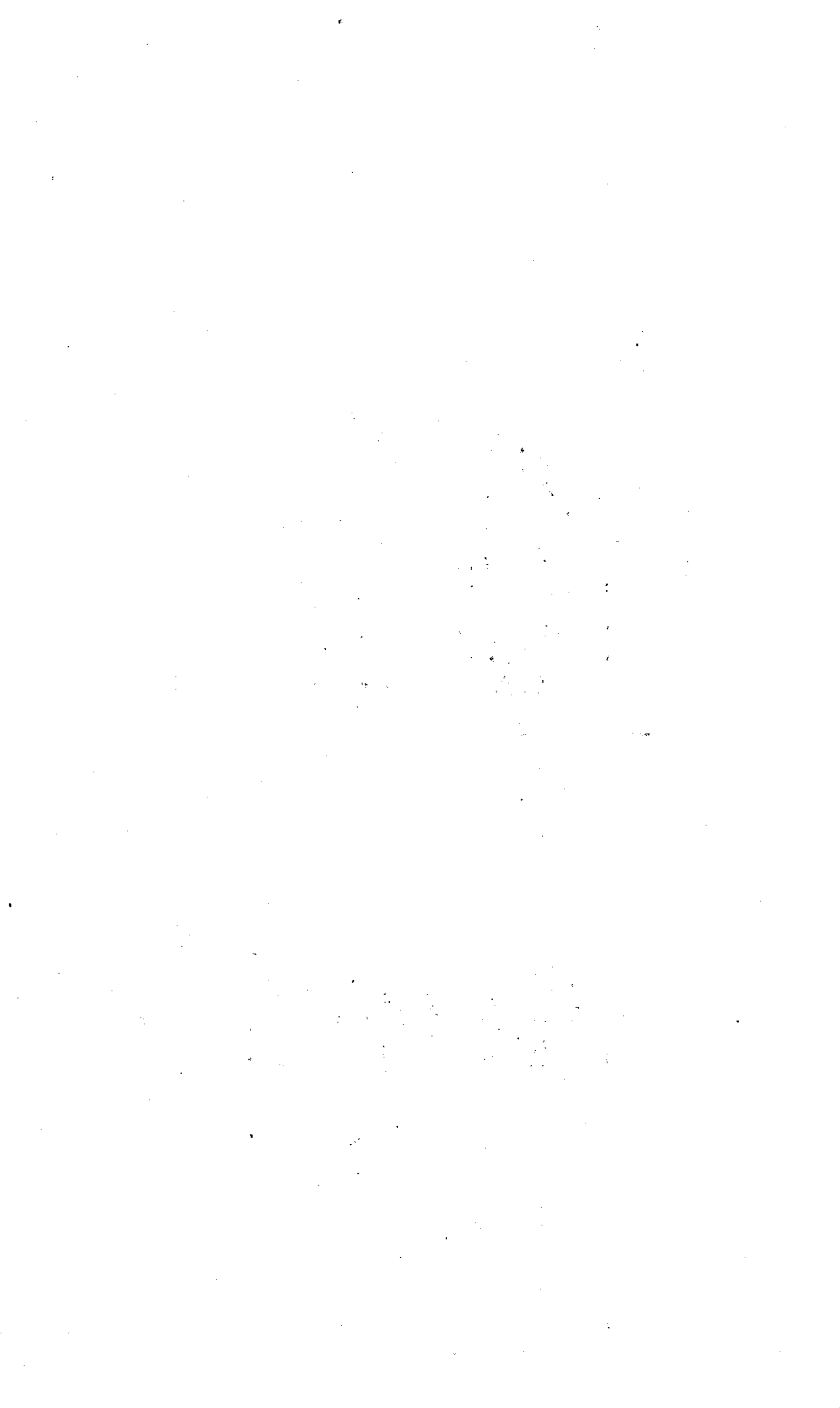
وهذه (المشاهد من حياة الصديق) إنما أُعدت في الأصل كمحاضرات لطلاب القسم النهائي من كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، على أن يتبعها مثلها في إخوانه من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم . ثم حضر مدرس المادة بعد غياب طويل، فكان عليه هو أن يتولى تتمة المنهاج ،وأُشغَلُ أنا عن ذلك بمادتي السيرة والعربية ...

ولقد أشار عليّ بعض ذوي الرأي أن أخرج هذه المحاضرات في كتيّب مستقل ،ففعلت ، ثقة مني بأن في مثل هذه الأبحاث غذاءً لا مندوحة عنه للجيل الإسلامي ، الذي تغزوه التيارات الدخيلة من كل مكان ، فتكاد تنسيه نفسه ورسالته .

والله أسأل أن يكتبها في العمل الصالح لي ولقارئها إنه خير مسئول .

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

شعبان ١٣٧٠ هـ .　　　　محمد المجذوب



حالة المسلمين عند وفاة الرسول ﷺ

« هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

« سورة الجمعة »

١ ـ المجتمع والرسول :

في هذه الآية الكريمة من كتاب الله صورة جامعة مفصلة للمجتمع الاسلامي الأول . الذي رباه رسول الله ﷺ .. فهو مجتمع أمي ضل طريق الحياة الصحيحة فبدا على شفا حفرة من النار ، ينطوي على مخزون من الطاقة كبير ، ولكنه لا يحسن التصرف بها بل كثيراً ما يوجهها لتدمير نفسه دون وعي ولا تقدير . وقد شاء الله أن يتداركه برحمته فبعث فيه صفوة خلقه وخاتم رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فما زال به إصلاحاً وتوجيهاً وتنظيماً وتزكية بتعاليم السماء وآدابها

حتى أنشأ الله به من هذه الخامات المبعثرة خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ..

لقد أبلغهم صلوات الله عليه وسلامه آيات ربهم محتملاً في سبيل ذلك ما يعجز الجبال الرواسي من أعباء الصبر . فلما لامس الحق فطرتهم واستجابوا لآيات ربهم ، عمد إلى تمريسهم بتحقيق معانيها في أنفسهم قبل غيرهم ، حتى صفيت من كل الشوائب الجاهلية ، فكانوا مرآة تنعكس على أعمالهم وأقوالهم حقائق القرآن .. ومن ثم تفجرت في قلوبهم ينابيع العلم بما لامس هذه القلوب من أشعة الحكمة النبوية .. وهكذا تم لهم ما شاء الله من إعداد للنهوض بتبليغ الدعوة الربانية . فلما شارفت رسالته ﷺ التمام، كان تلاميذ مدرسته النبوية على أتم الاستعداد للزحف برايات القرآن لإعادة الدنيا من جديد إلى نور ربها ، ولإخراج إخوتهم في الإنسانية من عبادة العباد إلى عبادته وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام .

وبديهي أن هذا المثل الأعلى من التكامل الروحي والعقلي لم يكن على درجة سواء ، بالنسبة لجميع أفراد هذا المجتمع ، ذلك لأن من سنة الله في خلقه أن تتفاوت ثمرات الحكمة في النفوس ، تفاوت مواهبها واستعدادها ، وهو تفاوت لا مندوحة منه لتنظيم الحياة التي ترتكز في أساسها على التنوع الذي ينطوي تحت مدلول الخبر الالٓهي :

«نحن قسمنا بينهم معيشتَهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضَهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضاً سخرياً» ولعل خير مثال لهذا التفاوت في افراد ذلك المجتمع النبوي قول رسول الله ﷺ «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ..»

وعلى هذا فلن نتوقع أن يكون كل فرد من أفراد ذلك المجتمع صورة تامة من رجال القمة، كالراشدين واخوانهم من السابقين، وإنما نتصور أننا تلقاء مجتمع متكامل تمثل افراده روح الاسلام، فوقفوا أنفسهم على نصرته وتحقيقه، في وعي يصونهم من الانحراف عن ذلك الروح، ولكن على تفاوت أيضاً في حظ كل فرد من هذا الوعي .. وهو وضع يتصور فيه الكمال ماثلاً في الانسجام بين أجزائه، بحيث يبدو كل فرد فيه متمماً لأخيه، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً – حسب الوصف النبوي – ففي ذروة هذا البناء أولو السابقة من الذين ميزهم الله بالإدراك الأعلى لمضمون الرسالة ثم يتدرج الناس على تباين حظوظهم من ذلك، حتى ينتهي الأمر إلى القاعدة التي تضم السواد الأعظم. أساس هذا المجتمع توحيد الله بالعبودية له وحده. وبالخضوع لكل أمر منه ونهي، والتزام طريقة رسوله الذي أوجب طاعته إذ جعلها مظهراً لطاعته تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله.» ثم وحدة الجماعة بالتعاون

على البر والتقوى وحماية المجتمع من الزيغ عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

ومجتمع كهذا ما كان ليرتسم في أحلام البشر يوم بعث الله محمداً ﷺ برحمته العامة للعالمين ، ذلك لأن فساد الفكر الديني في كل مكان وفي كل نحلة، وما تلا ذلك من تفسخ أخلاقي ذهب بأمن الإنسان وأمله ، حجب الابصار وطمس الأفكار، فلم يبق من سبيل لوقف عجلة البشرية في سفح المنحدر . على أن تكوّن هذا المجتمع الجديد لم يكن سوى نتيجة طبيعية للنظام الآلهي الذي من شأنه الهداية أبداً للتي هي أقوم ، ثم للتربية النبوية التي فتحت برحمتها مغاليق القلوب ، وأضاءت بأشعة القرآن ظلمات النفوس ، فكان طبيعياً أن يكون تعلق هؤلاء المستجيبين برسول الله بمقدار شعورهم بفضله وحبه ورحمته ، ومن هنا كان أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم وأنفسهم .

* * *

٢ — في مرض الرسول ﷺ :

وليس بعجيب بعد ذلك أن يزلزل المسلمين مرض نبيهم ﷺ إلى حد يشغلهم عن خاصة أمورهم ، حتى الجيش الذي كان قد أعده ﷺ لتأديب الروم بقيادة (أسامة بن زيد) قد توقف عن الحركة بانتظار برئه . وراح الجميع يتتبعون

أنباءه في قلق ولهفة لا يوصفان .. ولعل مما ضاعف هذا القلق كون بعض المحيطين برسول الله من جلة الصحابة كانوا يتوقعون قرب فراقه ﷺ ، فهذا عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ يتلو في آخر حجة قول الله تبارك وتعالى « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. » فلا يتمالك أن يبكي لأنه أحس وراء التمام النقصان ، وقبل ذلك بكى العباس حين استمع إلى رسول الله كذلك يقرأ « إذا جاء نصر الله والفتح .. » لأنه شم من خلالها رائحة فراق الحبيب الأعظم، وقد كان تصريحه ﷺ في جمرة العقبة أوضح دلالة من كل ذلك، إذ وجه كلامه إلى الجمع الغفير من المسلمين قائلاً : « خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا ! » وذات مرةٍ خرج علي رضي الله عنه من عند رسول الله باشّ الوجه فاقترب منه الناس يسألونه، فبشرهم بكل خير ، ولكن عمه العباس كان يرى غير هذا وان رسول الله ﷺ في ساعاته الأخيرة . وعلى الرغم من ثقل المرض الذي كان يعانيه صلوات الله عليه لم ينصرف ذهنه عن التفكير بحال أمته . وكان أشد ما يروعه في هذه الظروف خوف الفتنة على تلك الأمة التي كان أحنى عليها من الأم . إنه يخشى على ذلك البنيان الفخم الذي شاده بدأبه وجهاده ان تزعزعه عواصف الشقاق والاختلاف، فيشغل الأخوة بأنفسهم عن عدوهم الذي يتربص بهم الدوائر ، وتبعدهم المشكلات المفتعلة عن واجبهم الأكبر في نشر رسالة الله بين المدلجين في ظلمات

الشقاء من عباده .. ولهذا أبدى ﷺ رغبته في إملاء كتاب يصونهم من الاختلاف بعده ، وأمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يأتيه بكتف «حتى اكتب لأبي بكر كتاباً لا يُختلف عليه » فهمّ عبد الرحمن أن يأتي بالكتف، ولكن رسول الله لم ير ضرورة لذلك فقال له « اجلس .. أبى الله والمؤمنون أن يُختلف على أبي بكر » .

وكان هناك عدد من الصحابة فاختلفوا حول موضوع الكتاب منهم من يراه ضرورياً ، ومنهم من يرى الاكتفاء بأحكام الشريعة ، حتى تعالت الأصوات واشتد اللغط وأشفق عمر أن يزيد ذلك في وجع رسول الله ، وذكرهم بأن في كتاب الله ما يكفي ويشفي .. وهنا أمرهم رسول الله بالانفضاض عنه ، لأنه لا يجوز لهم التنازع في مجلسه . وقد اتضح مما تقدم ان إحجام الرسول عن كتابة الكتاب إنما كان لثقته بأصحابه أن لهم من سداد الرأي وشدة الغيرة على صالح الأمة وتقدير الكفايات المجربة ، ما يكفل جمعهم على الرجل الذي ليس أجدر منه بقيادة السفينة من بعده . على أنه مع ذلك لم يدع الأمر لاختيارهم المطلق ، بل أعانهم عليه بما هو أعمق وأوضح دلالة من الكتابة .. من ذلك تكليفه أبا بكر أن يصلي بالناس ، وإصراره على ذلك ، على الرغم من مراجعة عائشة له ومحاولتها صرف التكليف عن والدها خشية أن يتشاءم الناس به ، ثم خطبته التي أعلن بها أثناء ذلك رضاه ، التام عن صديقه

وإيثاره إياه على سائر الصحابة ، حتى انه أمر بسد كل باب يُفضي إلى المسجد غير باب أبي بكر .

• • •

٣ ـ خوفه على الأمة :

في هذه الغمرة من القلق العاصف والمرض المرهق لم يكتم رسول الله ﷺ خوفه على عقيدة التوحيد أن تمتد إليها براثن التحريف ، معبأة في قفاز من ظواهر المحبة له ، وهو يعلم أن الشيطان لم يتسلل من قبلُ إلى هذه العقيدة الإلهية ، في مواريث إخوانه من الأنبياء السابقين ، إلا تحت ستار التقدير لهم والتعظيم لذكراهم .. ثم ما انفك يفتل في الذروة والغارب حتى صرفهم إلى عبادتهم ، وهم يحسبون أنهم إنما يتزلفون بذلك إلى الله !. ومن هنا جاء تخويفه المسلمين من تقليد النصارى واليهود في هذه الناحية الخطيرة ، بمثل هذا التعبير الصارم « لعنة الله على اليهود والنصارى .. اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . » وقد جاء هذا الحديث عند الشيخين مذيلاً بعبارة « يحذر ما صنعوا » وهي من كلام عائشة أو ابن عباس ، تفسيراً لغرضه من هذا التحذير ، الذي يصور أشد التصوير خشيته على المسلمين الانحراف إلى مثل هذا المنحدر الرهيب . وشيء آخر كان يتردد ذكره على لسانه حتى غرغر ولم يعد يبين ، هو وصاته بالصلاة والرقيق حتى كان آخر كلامه « الصلاةَ ..

وما ملكت أيمانكم » ذلك لأنه كان يخشى على أمته كذلك أن تستهين بأمر الصلاة فيتبلد ضميرها ، حتى يفقد الفرد منها مراقبة الله واستحضار جلاله ، فيدفعه ذلك إلى الاستكبار على الضعفاء ، وبخاصة الذين لا ضمان لهم من ظلم الانسان ، إلا سلامة ضميره الذي لا سلامة له ولا حياة إلا بالصلاة .

• • •

٤ – وفاته ﷺ وأثرها الرهيب :

وشاءت حكمة الله أن يسكت اللسان الذي لم يتحرك في غير مرضاته ، ويسترد الشعلة التي أضاء بها ظلمات الدنيا، فكان ما تخوفه المسلمون ووقع ما كانوا يحذرون .. ووافاه الأجل وهو في حجر عائشة ، وما إن سرى النبأ في المدينة حتى صعق الناس ، وفقدوا صبرهم ، وارتفعت أصوات تقول : لا تدفنوه فإنه حي ! بل إن هول المفاجأة قد ضعضع وعي عمر نفسه ، الذي كان يتوقع الكارثة منذ يوم عرفة فإذا هو يصرخ في الناس : « .. إن رسول الله ﷺ ما مات .. ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى .. والله لَيرجعنّ كما رجع موسى » وفي هذه اللحظات الفاجعات وصل الصديق من ناحية السنح خارج المدينة ، فدخل المسجد لا يتكلم ، ومر بجموع المسلمين وهم يبكون ويموجون ، حتى انتهى إلى مضجع رسول الله .. فلما تحقق من وفاته عاد إلى الناس ليعالج

ذهولهم بأبلغ ما يتصوره العقل في هذا الموقف : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ثم أخذ يتلو عليهم قول الله تعالى : « وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ! ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » فكأن الناس لهول الصدمة لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها الصديق ، فتلقوها منه ، فما تسمع بشراً من الناس إلا يتلوها !..

وقد روى عمر قصة ذلك اليوم فقال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تُقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض .. وعرفت أن رسول الله قد مات .. » .

* * *

٥ ـ في أعقاب الكارثة :

من أجل تحديد الوضع العام الذي كان محيطاً بجو الدعوة أثناء وفاته ﷺ ، لا بد من توجيه النظر إلى أربع نواح: المجتمع الاسلامي في مواطن انتشاره من الجزيرة ، ثم بقايا الوثنية فيها . ثم موقف الوثنية الفارسية من هذا المجتمع ، وأخيراً موقف أهل الكتاب من النصارى واليهود ..

أ ـ أما مجتمع الاسلام فقد بدأنا هذه المقدمة بتحديد

أوضاعه وما انتهت إليه أثناء الأيام الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ . ونستطيع التحقق من هذا الواقع عندما ننعم الفكر في هذه الفقرة من خطبته الجامعة في حجة الوداع : « .. ان الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم .. » فالرسول صلوات الله عليه مطمئن إذن إلى رسوخ عقيدة التوحيد في قلوب الجميع ، ممن شرح الله صدورهم للاسلام .. فلا مطمع للشيطان في إعادتهم إلى الوثنية بعد أن أنقذهم الله منها ، ولكن لا يزال أمامه ثغرات لا يدخر وسعاً للتسلل منها إلى صفوفهم ، وإنما يفتحون له هذه المنافذ ببعض الأعمال الصغيرة التي لا يلقون إليها بالاً ، ولا يعيرونها انتباها ، فإذا فإذا هي في يده أخيراً معاول تخريب لا تقف — إذا استطاعت — دون القضاء على وحدة الجماعة !.. فعلى المسلمين إذن أن يحصنوا أنفسهم من محاولات الشيطان بالحذر الدائم من مباغتاته، وبالتعاون المستمر على البر والتقوى وإيثار مصلحة الملة والجماعة . ولن يساعدهم على تحقيق هذا التراص شيء مثل الالتفاف حول قيادة رشيدة لها من ماضيها ، في صحبة الرسول والفناء في دعوته، ما يجعلها موضع الثقة لدى أهل السابقة من المهاجرين والأنصار .. ومما يلح عليهم في توكيد هذه الحقيقة إدراكهم العميق لما يحيط بهم وبدينهم من أخطار في الداخل ، حيث بقية المنافقين ، ومن الخارج حيث يترقب الأعداء ، على اختلاف مشاربهم وأهدافهم ، فرصة تمكنهم

من أن يميلوا عليهم ميلة واحدة ..

ب ـ لقد كال الاسلام للوثنية العربية ضرباته القاصمات ، ولكن هذه الوثنية لم تمت ، بل ترنحت وانكمشت على نفسها ترصد الظروف المناسبة .. وقد وصف الله تبارك وتعالى تلك الجحور التي لاذت بها في مثل قوله : « الأعْرَابُ أشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأجْدَرُ أنْ لا يَعْلَمُوا حُدُودَ ماأنزل اللهُ »«وَمِنَ الأعرابِ مَنْ يَتّخِذُ ما ينفقُ مغرماً ويَتَرَبّصُ بِكُمُ الدوائِرَ » « ومن حولِكُم من الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أهْلِ المدِينَةِ مردوا على النفاق » ـ التوبة ـ . فهناك إذن ألغام مبثوثة في جدران هذا المجتمع الاسلامي وحوله .. معدة للانفجار عند أول شرارة ، إنها الجاهلية التي تأبى الاستسلام إلا بعد أن تستنفدَ طاقاتها وذرائعها جميعاً .

وقد تمثلت في نفوس ألفت الفوضى ووجدت في الخصومات الدامية مرتعها المفضل،فهي أبعد ما تكون عن فهم روح الاسلام وتمثل رسالته. والارتفاع إلى مستوى تعاليمه،ولئن خضعت لسلطانه،انها لم تفعل ذلك إلا فرَقاً من القوة التي لم يقف في وجهها شيء،والتي استطاعت أن تحطم الوثنية في مكة نفسها معقلها الأكبر ، وفي التعبير القرآني : « .. يتربص بكم الدوائر » إشارة دقيقة إلى روح التحفز التي تتمخض بها جيوب هذه الوثنية المترقبة هنا وهناك !..

ج ـ ولم تكن الوثنية الفارسية على حدود الجزيرة بأقل

شراً على مجتمع الاسلام ، ذلك لأنها بدأت تحس خطر الروح الجديد يهدد سلطانها في بلاد العرب ، وينذر مجوسيتها بالتقلص عن تلك الأجزاء العربية ، التي تسربت إليها في غفلة من الوعي ، بل يتوعد طغيانها بالزوال عن أعناق الشعب الفارسي ، الذي كان قد بلغ به العسف حدود الانفجار .

وقد بدأت مقاومة هذه الوثنية للمد الإسلامي على يد كسرى أبرويز ، عندما مزق كتاب رسول الله الذي يبلّغه فيه رسالةَ ربه ! ولم يكتف الأحمق بذلك . بل أرسل إلى واليه في اليمن يأمره أن يبعث إلى الرسول بمن يأتيه به ، ليعاقبه على جرأته في مخاطبته بمثل هذا الشأن ! وعلى الرغم من مصرع هذا الأُحيمق على يد ابنه شيرويه لم تُعْدل الوثنية الفارسية موقفها من الإسلام ، بل استمرت في الاعداد لمواجهته والكيد له بكل ما بقي في يدها من مواريث القوة !

د — ثم يأتي دور الصليبية التي تحيط بهذا المجتمع الغض في شبه قوس يمتد باتجاه الغرب فالجنوب من تخوم العراق إلى حدود اليمن ، وهي قوة بشرية ضخمة ومخيفة ، على الرغم مما يختفي في طواياها من عوامل الانحلال والتفكك . وقد افتتحت الصليبية هجومها على الاسلام بقتل فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان ، لاعتناقه الاسلام ومراسلته لرسول الله ، ومضت تعد عدّتها لمجابهة التيار الجديد الذي يهدد كذلك وجودها في الأرض العربية كلها .

وفي تلك الأثناء كانت اليهودية تحاول استرداد وعيها ، بعد الضربات التي تلقتها في قينقاع وقريظة والنضير وخيبر ، لتستأنف من جديد دسائسها اللئيمة على الدين الذي رفع براثنها عن أعناق العرب .

تلك لمحات سريعة أردنا بها إعطاء صورة مركزة لواقع المجتمع الإسلامي ، أثناء الفاجعة الكبرى التي نزلت بالمسلمين عند وفاة رسول الله ﷺ .. وهي صورة على إيجازها تؤكد بوضوح أنهم كانوا أحوج ما يكونون إلى قائد يرتفع بوعيه وبقوة احتماله وبثقة الجميع فيه إلى مستوى الحدث العظيم ، وقد شاءت رحمة الله وحكمته أن تتجمع هذه الميزات كلها في إهاب الرجل الذي سلط عليه رسول الله الأضواء ، وأوقع في أخلاد الصفوة من صحابته انه هو المعد لهذه الساعة العصيبة .

وهكذا تتجلى أبداً رعاية الله لهذه الأمة ، فهو لم يقبض نبيه ﷺ إلا بعد أن هيأ لسفينته الربان الماهر الحازم الذي لا يغلبه الجزع على الواجب .

الخليفة الأول

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي التيمي ، وأمه أم الخير بنت صخر بن عامر بن كعب ، فهي تلتقي مع زوجها عثمان في الجد الثاني كعب ، ويلتقيان مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب الجد السادس لهما . سمي في الجاهليّة عبد الكعبة ، ثم سمّاه رسول الله عبد الله ، ولقّب عتيقاً لجماله ، أو لنقاء نسبه . وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله قال فيه : (من سَرَّهُ أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا) .

واشتهر بالصدّيق لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ ، ولزومه الصدق ، إذ لم يأت ببهتان قط . ويروي ابن إسحاق

أنه عرف بهذا اللقب منذ صبيحة الإسراء ، وقد عَرّفَهُ به رسول الله في الحديث المشهور : (أُسكن أحد فإنما عليك نبي وصِديق وشهيدان) .

ويؤكد بعض المؤرخين أنه كان معروفاً بهذا اللقب حتى في الجاهلية لاشتهاره بالصدق .

وقد تميز دون الصحابة بأن لقبه غلب على اسمه ، وإلى هذا يشير أبو محجن الثقفي إذ يقول :

وسمّيت صديقاً ، وكل مهاجر
سواك يسمى باسمه غير منكرِ

٢ ـ نشأته :

ولد الصديق بعد رسول الله بسنتين وأشهر ، وقد نشأ بمكة لا يكاد يغادرها إلا للتجارة ، وأحيط منذ صغره بجو ممتاز من الدماثة التي عرف بها قومه بنو تيم ، وهي صفة اكتسبوها بالتمرس الطويل في عمل التجارة ، التي تعتمد على اللطف والأناة دون القوة والمكاثرة . فوضح أثرها في افرادهم من حيث الود المتبادل ، والبر الذي لا تكاد تخطئه في واحد من أسرة الصديق .

ولقد امتاز الصديق بين أقرانه بوفرة المال كما امتاز بوفرة المروءة ، التي تجعل المال لديه وسيلة البر والاحسان والاسهام في كل معروف .

بهذه المميزات العالية تبوأ الصديق بين قومه في الجاهلية منزلته الرفيعة ، إذ كان ممثل قومه تيم في إحدى رئاسات المجتمع القرشي ، يدير منها أمور الأشناق — الديات — فيقضي بما يراه ، دون أن يجد في قريش معارضاً لرأيه . فإذا تعهد فيها بشيء أيدت قريش تعهده ، ونفذت التزامه ومن معه ، بينما هي ترفض أي تعهد أو التزام من سواه . ومن هنا وصف بأنه كان من رؤساء قريش في الجاهلية ، ومن أهل شوراهم محبّباً فيهم مؤلفاً لهم . ولعل أصدق وصف له في نظر الجاهليين كلمة ابن الدغنة ، الذي عرض عليه جواره ضنّاً به أن يفارق مكة فراراً بدينه : (انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ، وتُقري الضيف) .

وقد روى ابن عساكر من طريق عائشة رضي الله عنها أنه لم يقل شعراً قط .. ولقد ترك وعثمان شرب الخمر . وطبيعي أن أبا بكر ، وهو من فصحاء قريش ، لا يهجر الشعر جهلاً بقيمته وأثره وبلاغته ، وإنما فعل ذلك اشمئزازاً من مسلك الشعراء ، الذين سخروه للهجاء والمدح والفخر ، وما إلى ذلك من دواعي النفاق وإثارة الفتن والتنافس في الشر ، وهي الأمور التي لا تتفق مع فطرته النزّاعة إلى تلك الفضائل التي يصفها ابن الدغنة .. وكذلك الأمر في الخمر فهو وعثمان يمثلان طائفة من أصفياء النفوس الذي عرفتهم فترة ما قبل البعثة ، ناقمين من استحكام هذه المفسدة في أخلاق معاصريهم .

وقد روى ابن سعد أيضاً وصف ابنته عائشة له بأنه (.. أبيض خفيف العارضين ، أجنأ ، لا يستمسك إزاره على حِقويه ، معروق الوجه ، غائر العينين ، ناتىء الوجنتين ، عاري الأشاجع).ولعل كثيرين يتميزون بهذه الصفات،دون أن يكون فيها أي تعبير عن شيء ممتاز ، ولكن هذه النحافة وما ينسجم معها من النعوت الأخرى تكون ذات دلالة روحية عالية حين تنطوي على حسّ متوهج كحس أبي بكر ، وقلب مشرب بالخير والتطلع اليه كقلبه ، فليس كل نحيف خفيف اللحم بعبقري بعيد النظر طويل الفكر ، ولكن الغالب ان الانسان عندما ينطوي على مثل هذه الطاقات الروحيّة لا بد أن تأكل من لحمه وتخفف من شحمه إلى ذلك الحد ، فإذا قُيض لهذه الفطرة الصافية أن تواجه نور الوحي تفاعلت به إلى المدى الأقصى ، وأعطت من المردود الفعال ما لا يتوفر إلا لأمثالها من ذوات الاستعداد الروحي الرفيع .

٣ ــ إسلامه :

في أخبار الصديق قصة مؤداها أنه حَدَّثَ عن نفسه فقال : كنت جالساً بفناء الكعبة ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً ، فمر به أُميّةُ بن أبي الصلت فسأل : كيف أصبحت ياباغيَ الخير ؟ قال : بخير . قال : هل وجدت ؟ قال : لا ، ولم آلُ من طلب . فقال :

كل دين يوم القيامة إلا   ما قضى الله والحنيفة زور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم أو من أرض فلسطين ... »

قال أبو بكر : ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي ينتظر أو يبعث ، فخرجت أريد ورقة بن نوفل ، وكان كثير النظر في السماء ، كثير همهمة الصدر ، فاستوقفته ، ثم قصصت عليه الحديث . فقال : نعم يا ابن أخي .. أبى أهل الكتاب والعلماءُ الا أن هذا النبي الذي يُنتظر من أوسط العرب نسباً .. وقومك أوسط العرب نسباً . » قال أبو بكر : يا عم وما يقول النبي ؟ قال : يبلغ ما يوحى إليه : ألا انه لا ظلم ولا تظالم ..) يقول أبو بكر : فلما بعث النبي ﷺ آمنت وصدقت »

فالقصة تقدم لنا صورة نفسية دقيقة الدلالة على سلامة الفطرة في الصديق ، ورهافة حسّه ، فهو يواجه لأول مرة خبر النبي المنتظر ، يتحاور به اثنان من الحنفاء الذين عرفوا بالنفور من أرجاس الوثنيّة ، والبحث عن الحق ، يتسقطون أخباره من أفواه ذوي العلم به من أحرار الفكر والمعنيين بأنباء السماء .. وما كان هذا الخبر ليثير كوامن صدره لولا استعداد فطري عميق يحتفظ به هذا الصدر على الرغم من مؤثرات البيئة . وقد رأينا ظواهر هذا الصفاء الفطري في استنكافه عن

الخمر ، ومنعه لسانه من قول الشعر خوفاً من الوقوع فيما لا يرضاه .

ومع ذلك فكيف كان إيمانه بالنبي ؟.. أكان استسلاماً معزولاً عن التفكير والتدقيق والتثبت ؟!. لقد كان من أقرب الناس لرسول الله إلى ما قبل البعثة ، حتى انه ليشارك في السعي بتزويجه ﷺ من خديجة . وقد عـرَف من سمو طبعه وتزهده وارتفاعه على ظروف البيئة أثناء ذلك ما جعله موضع ثقته التامة . ولكن .. ومع ذلك فهل أقام إيمانه به على صداقته وحدها ، دون نظر في الدعوى ، ودون استقصاء للدليل !..

لنستمع إلى هذه القصة الأخرى يرويها هو أيضاً :

قال الصديق : خرجت إلى اليمن قبل أن يبعث النبي ﷺ ، فنزلت على شيخ من الأزد عالم ، قد قرأ الكتاب وعلم من الناس علماً كثيراً ، فلما رآني قال : أحسبك حرَمياً !.. قلت : نعم .. ثم قال : أجد في العلم الصحيح الصادق أن نبياً يبعث في الحرَم . ثم قال : أحامل أنت عني أبياتاً قلتها في ذلك النبي ؟.. قال أبو بكر : فقدمت مكة فجاءني عقبة ابن أبي معيط وشيبة وربيعة وأبو جهل وأبو البَختري وصناديدُ قريش ... قالوا: يا أبا بكر. أعظم الخطب .. يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي مُرسل ، ولولا أنت ما انتظرنا به .. فإذْ قد جئت فأنت الغاية والكفاية .. » فصرفتهم على أحسن مسّ . وسألت عن النبي ﷺ ، فقيل لي:في منزل خديجة ، فقرعت

عليه الباب ، فخرج إلي ، فقلتُ : يا محمد .. فقدتَ منازل أهلك ، وتركتَ دينَ آبائك وأجدادك !. » قال : يا أبا بكر إني رسول الله إليك وإلى الناس كلّهم فآمِنْ بالله . فقلت : وما دليلك على ذلك ؟ قال : الشيخ الذي لقيتَ باليمن !. قلت: وكم من شيخ لقيتُ باليمن !. قال : الشيخ الذي أفادك الأبيات !.. قلت : ومَن خبرك بهذا يا حِبيبي؟!. قال: الملَك العظيم الذي يأتي الأنبياء قبلي . قلت: مدّ يدك فأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله .. » .

علينا أن نذكر أولاً قوة التعاطف بين القصتين من حيث الأثر التوجيهي في نفس الصديق . فهو في الأولى يسمع بخبر النبي لأول مرة ، فلما شخص إلى اليمن واتصل بالعالم الأزدي لم يفاجأ بأنبائه ، بل زادته تهيؤاً للانسجام في الحدث الجديد ، حتى إذا واجه الرسولَ لم يحتج إلا إلى اجراء التحقيق الذي يثبت أن صاحبه هو صاحب البشُريات التي تشغل بال العلماء والحنفاء ، وتدفعهم دفعاً إلى ترقب موعده ، وإلى البحث عن مبعثه !.. وفي الخبر النبوي : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ما عتّم حين ذكرته له .. وما تردد فيه . »

ويُجمع مؤرخو العصر النبوي من رُواة السيرة أن الصديق كان أول الرجال إسلاماً ، بل منهم من يقول انه أول المسلمين مطلقاً ، وقد سئل ابن عباس عن أول من أسلم .. فقرأ

قول حسان :

والثانيَ التاليَ المحمود مشهدُه   وأول الناس ممن صدقوا الرُسلا

وعن عائشة رضي الله عنها : (ما عقلتُ أبويّ إلا وهما يدينان الدين . وما مرّ علينا يوم قط إلا ورسول الله يأتينا فيه بكرةً وعشياً) . وهذا يعني أن إسلام أبي بكر جعل من داره مركزاً لانطلاق الرسالة . فالرسول يتردد عليه صباح مساء ، فيتيح ذلك لأبي بكر أن يتابع دروس الوحي منذ بواكيره حتى يكون بعلمه وعمله وانقياده لامامه بمنزلة الممثل النموذجي لمعاني الاسلام، الذي يريد به الله تكوينَ المُثلِ الانسانية الأولى لدينه الخالد .. ومن هنا كان حب الرسول إياه وتقديره لمزاياه حتى يقول لأصحابه ، وقد رأى خلافاً بين بعضهم وبينه : (دعوا لي صاحبي .. فإنكم قلتم كذبتَ وقال صدقتَ)

٤ ـ من مواقفه الإسلامية :

ومن طبيعة المثالية التي حققتها التربية النبوية في الصديق أن جعلت إيمانه من الضرب الايجابي ، الذي يفرض على صاحبه أن يضع كل شيء في خدمة الحق .. ولذلك رأينا أبا بكر يضع ماله ونفسه جميعاً في هذا الطريق . ففي الأخبار الصحيحة : (أنه بُعِثَ النبي وعند أبي بكر أربعون ألف درهم ، فكان يعتق منها ويقوي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ، ثم كان يفعل ما يفعل بمكة) . وقد

بلغ عدد المسلمين الذين اعتقهم مال أبي بكر لينقذهم من عذاب المشركين سبعة ، فيهم بلال وأربع منهم نساء ضعيفات .

وكان والد أبي بكر يرى من الخير لو أنفق ذلك المال في إعتاق رجال ذوي قوةٍ صالحة لحمايته فيجيبه ابنه : (يا أبت إني أريد ما عند الله) .

وقد أجمع المفسرون على أن قوله تعالى : (وَيَتَجَنَّبُهَا الأَتْقَى الذي يُؤْتِي مالَه يتزكّى ...) إنما أُنزِلَ في أبي بكر .

وكذلك استيقن الصديق من أول يوم أن من حق إخوانه أن يأخذ بيدهم إلى الخير الذي هُدِي اليه .. وطبيعي أن يكون أصدقاؤه من الطراز الذي يجانس طبيعتَه في سرعة الاستجابة للحق ، فراح يعرضه عليهم فتتفتح له قلوبهم .. وهكذا أسلم على يديه نخبة من الرجال الذين كان لهم أعظم الأثر في تثبيت دعائم الإسلام ودولته : عثمان وابن عوف والزبير وسعد وطلحة .. إلى جانب إدخاله أهلَ بيته واحداً بعد آخر ، حتى لم يبق منهم واحد خارج نطاق الإسلام . وقد قيل : لا يُعرفُ أربعة تناسل بعضهم من بعض وكلهم صحابي إلا آل أبي بكر ؛ وهم عبد الله بن أسماء بنتِ أبي بكر بن أبي قحافة .

ولم يضن الصديق على الاسلام بنفسه ، فاندفع يدعو ويدافع عن رسول الله ببسالة خارقة ، حتى لقي في سبيل ذلك الضربَ المبرِّحَ ، ولم يكفَّ عنه المشركون حتى ظنوه قد مات !. وقد حدث ذلك يوم ألح على رسول الله بالخروج لإظهار

الدعوة ، فاستجاب له ، وخرج مع الصحابة إلى ندوة القوم . وقام الصديق يخطب داعياً إياهم إلى الهدى ، فثاروا به وبالمسلمين .. ووُطىء الصديق يومئذ بالأرجل ، وضرب بنعلين مخصوفين على وجهه وجبهته ، حتى سُوّي أنفه ووجهه !.. ونقل إلى بيته كالميت .. ولبث يومه لا يعي ، حتى إذا تكلم كان أول ما حرك شفتيه سؤاله عن رسول الله !. ثم أقسم لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى يراه . وحُمِل اليه ليلاً في دار الأرقم ، فما إن رآه حبيبه ﷺ حتى أكب عليه يقبله ، وأكب عليه إخوانه يقبلونه . ونسي أبو بكر آلامه بعد أن اطمأن على رسول الله ، فيطمئنه قائلاً : بأبي أنت وأمي يا رسول الله .. ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي !. » .

وقد ثبت أبو بكر في وجه البلاء مؤثراً البقاء مع رسول الله في مكة ، على الهجرة إلى الحبشة . حتى أذن الله لنبيه بالخروج فرافقه إلى الغار ، وفي الطريق حتى المدينة المنورة ، ثم استمر يشهد معه المشاهد كلها حتى قبض الله رسوله إليه.

وتقص عائشة خبر الهجرة : (فلقد رأيت أبا بكر يبكي من الفرح بما بشره به رسول الله من أمر الاذن بالهجرة ، ثم خرجا حتى دخلا الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام . وقد أكدت الأخبار الصحيحة أن الذي كان يأتيهما بخبر أهل مكة هو عبد الله بن أبي بكر ، وان اللبن الذي كانا يشربان هناك من

غنم أبي بكر ، التي يريحها عليهما راعيه عامر بن فهيرة .. وان اسماء ابنته كانت تبعث اليهما بالطعام ، وقد لقبت بذات النطاقين بسبب ذلك . وان الذي كان يحمل اليهما ذلك الطعام هو عبد الله بن أبي بكر نفسه .

ومن هذا نعلم أن المؤمنين من آل أبي بكر قد عاونوا جميعاً على حماية هذه الهجرة المباركة ، التي لا يصلح للمشاركة فيها والاطلاع على أسرارها إلا كبار الأمناء الأوفياء . وصحبة الهجرة كرامة زائدة على فضيلة الصحبة ، خلّد الله ذكرها في كتابه ، إذ سمى أبا بكر (ثانيَ اثنَيْنِ إذْ هُما في الغار إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لا تَحزَنْ إنّ اللهَ معَنا) ولهذا قال أولو العلم : ان انكار الصحبة على أي صحابي لا يعتبر مدعاة للكفر ، غير صحبة أبي بكر لثبوتها بنص الكتاب .

وبدأ رسول الله تنظيم المدينة ، عاصمةِ الدولة الاسلامية الأولى ، فأقطع الدور ، وجعل موضع دار الصديق عند المسجد ، ولا تفسير لذلك إلا رغبته ﷺ في قربه . ثم جاء عهد الجهاد العسكري فصحب رسول الله في بدر وأحد والخندق وخيبر . وسائر المشاهد الأخرى .

وفي بدر تقدم ابنه عبد الرحمن وكان رامياً شجاعاً ، ولم يكن قد أسلم بعدُ ، يدعو للمبارزة ، فنهض أبو بكر ليلقاه ، ولكن رسول الله رده عن ذلك خوفاً عليه ، وهو يقول له : (متّعنا بنفسك). وفي أحُد كان بين القلة التي ثبتت مع رسول

الله حين ولّى عنه الناس في زحمة المفاجأة . ويوم تبوك عهد برايته العظمى اليه ، وقد أمّره على سرية بعثها إلى نجد ، ثم في عام الفتح ولاّه ﷺ إمارة الحج .

وفي كل واحدة من هذه المآثر دليل كامل على أن الصديق موضع رضى رسول الله ﷺ وحبه وثقته ، وأنه قد وهب وجوده كله لنصرة رسول الله وإعلاءِ كلمة الله .

بيعة الصديق وسياسته

١ ــ هل استخلف رسول الله ؟

كان رسول الله ﷺ مُبلِّغَ دعوة ربه إلى الناس والحاكمَ المنفذَ لشريعته فيما بينهم ، فلما توفاه الله انتهى أمر الوحي وبقي جانب الحكم ونشرِ الرسالة ، وهو أمر لا غنى فيه عن الخلافة الرشيدة ..

ولقد رأينا فيما تقدم اهتمام الرسول بترتيب هذا الموضوع إذ لفت الأنظار إلى أبي بكر بشكل يلقي في رُوع أولي الألباب أنه يرشحه للقيادة من بعده ، ولكن مع ذلك لا يمكن القول بأن الرسول قد صرح بأمره القاطع في هذا الشأن. وفي قوله لعبد الرحمن بن أبي بكر ، بعد أن أمره بإحضار أدوات الكتابة :

(اجلس .. أبى الله والمؤمنون أن يُختلف على أبي بكر ...) أوضح دليل على ثقته بحكمته وصحابته ، وأنهم منتهون حتماً إلى الالتفاف حول الصديق . وفي الصحيحين عن ابن عمر أن أباه قال حين حضرته الوفاة (.. ان أستخلف فقد استخلف من هو خير مني – يعني أبا بكر – وان أترككم فقد ترككم من هو خير مني – يعني النبي) وعن علي (رضي) أنه قال يوم الجمل : ان الله لم يعهد الينا في هذه الإمارة شيئاً حتى رأينا من الرأي أن نستخلف أبا بكر فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه) فالرسول إذن لم يترك أمر الخلافة للشورى دون تعيين لظروفها ولو أنه كان مكلفاً الزام الأمة بشكل أو شخص لَعَيَّن الأمر بوضوح تام، كما عين أمر الصلاة والعبادات.وكل ما فعله في هذا الصدد أنه وجه المسلمين إلى مكان اختيار الامام بمثل قوله : (ان هذا الأمر في قريش ، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ، ما أقاموا الدين) . ولكن لم يحدد لذلك بيتاً ولا أسرة من قريش . وفي حصره الإمامة بقريش حكمة بالغة إذ (الناس تبع لقريش خيارهم لخيارهم ، وشرارهم لشرارهم) . فلا سبيل لانتظام أمر الناس إذ ذاك خلف رجل إلا أن يكون من قوم نبيهم ، ومع ذلك لم يلزم ﷺ المسلمين بإمامة قريش إلا أن يقيموا الدين ، فإذا فقدوا هذه الصفة لم يكن لهم أية ميزة على سواهم ..

كذلك أكد عليهم الأمر بوجوب السمع والطاعة لمن يولونه ولو عبداً .. ثم وجه الأفكار كما أسلفنا إلى شخصية

الصديق ، بضروب من التوجيه جعلت رجلاً كالحسن البصري وهو من أئمة التابعين يقسم على وقوع الاستخلاف، مع علمه التام بأن رسول الله ﷺ لم يعط إشارته تلك صفة الإ القاطع .

ونحن نقرأ في أحداث يوم السقيفة أن عمر قد ر ب ى أبي عبيدة أولاً أن يبايعه بالخلافة ، فرد عليه قائلاً : ما رأيت لك فهّة قبلها ! أتبايعني وفيكم الصديق ثانيَ اثنين !) وإنما يدل هذا على أن عمر وأبا عبيدة واخوانهما كانوا خالي الذهن تماماً من أي علم بعهد من رسول الله يلزم المسلمين مبايعة أي واحد من صحابته .. وعلى هذا فلا بد للباحث أن يتتبع مجرى الحوادث . ليتبين الطريقة التي سلكها المسلمون لاختيار خليفة رسول الله .

٢ ـ كيف تمت بيعة الصديق :

لم يكن رسول الله قد ووري الثرى عندما انطلقت إشارات الخطر في سماء المدينة تعلن انشقاق المسلمين حول الخلافة .

قال ابن إسحاق : (لما قُبض رسول الله انحاز الخزرج إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي وطلحة والزبير في بيت فاطمة . وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر ومعهم أُسيد بن حضير في بني عبد الأشهل ـ من الأوس ـ فأتى النبأ إلى أبي بكر وعمر أن أدركوا الناس .

ونلخص بقية القصة عن عمر (رض) (.. فإذا هم مجتمعون على سعد بن عبادة مريضاً.. وقام خطيبهم فأطرى الأنصار والمهاجرين وصرح بما يريدون .. فقال أبو بكر أما ما ذكرتم من خير فهو فيكم معشر الأنصار وأنتم أهله وأفضل منه ، ولكن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش،ولقد رضيت لكم أحد هذا الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ..) وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة ..

فقال رجل من الأنصار — هو الحباب بن المنذر — منا أمير ومنكم أمير ». وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات حتى خشيتُ الاختلافَ . فقلنا ابسط يدك أبا بكر فبايعته وبايعه المهاجرون ، وبايعه الأنصار ونَزَوْا عن سعد .. فوالله ما وجدنا أمراً أوفق من مبايعة أبي بكر .. خشينا إن نحن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يُحدثوا بيعة بعدنا ، فإما بايعناهم على ما نرضى ، وإما أخلفناهم فيكون فساد ..) .

في هذه الأسطر صورة مكثفة للوضع الخطر الذي واجهه المسلمون عقيب وفاة نبيهم ، وقبل أن يغيَّب.. فالأنصار على أهبة العودة إلى النزاع الجاهلي القديم ، الذي كاد أن يأتي على الأوس والخزرج لولا أن أنقذهم الله برسوله . فالخزرج محدقون بسيدهم سعد بن عبادة يريدون له خلافة المسلمين بأي ثمن،والأوس مترددون لم يعلنوا قرارهم النهائي . ولكن انحياز نقبائهم — أسيد بن حضير— إلى صفوف المهاجرين ينذر بالفرقة التي لا يستبعد أن تجر الوبال على الفريقين . ثم ان

المهاجرين أنفسهم قد اشرفوا على نزاع مجهول العاقبة . يتجلى في اعتزال عدد من كبار الصحابة ، وتأخرهم عن إقرار الواقع الذي أبرم في غير مشهد منهم ولا مشورة !.

وقد رأينا أن قدوم الصديق وصاحبه إلى السقيفة كان أمراً مرتجلاً دفعت إليه الظروف الطوارىء، فلم يكن ثمة متسع لدعوة كبار المهاجرين الآخرين من أجل التشاور والاتفاق على التدبير المناسب .. ولنتتبع أجزاء المشهد مرة أخرى :

لقد وقف الحباب بن المنذر ، وهو البُدْريّ ذو الرأي ، يصرخ مهدداً: أنا جُذَيلها المحكَّك وعذيقها المرجَّب .. أما والله إن شئتم لَنُعيدَنّها جذعة ..) .

انها نُذُر الحرب تندلع لتحرق الأمة كلها .. فلقد تغلب الهوى على الايمان، واكتسحت الرغبة في شرف المنصب كل وعي وتقدير... فما السبيل إلى إطفاء هذه النار الجاحمة ورد الناس إلى أخوة الاسلام !..

لقد أفلت زمام الأمر من يد الجهد البشري فلم يبق إلا تدبير السماء .. وجاء هذا التدبير على لسان كبير من الخزرج هو بشير بن سعد والد النعمان فقال : يا معشر الأنصار : إنا والله ما أردنا إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا . فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغي به في الدنيا عرضاً .. إن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى .. فاتقوا الله ولا ولا تخالفوهم) .

ثم جاءت الحكمة على لسان أسيد بن حضير وإخوان له من الأوس : (والله – يا معشر الأوس – لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت عليكم بذلك الفضيلة ... قوموا فبايعوا أبا بكر ..)

وسرعان ما عملت هذه الكلمات عملها في أفئدة القوم ، فإذا هم يتدافعون لمبايعة الصديق حتى وطئوا سعد بن عبادة، الذي لم يتخلف غيره عن البيعة في جمهور من حضروا السقيفة حتى الحباب بن المنذر نفسه !

ولقد تجلت رحمة الله هناك في ظواهر كثيرة منها : ان الصديق وصاحبيه قدموا السقيفة خالين من مظاهر القوة ، ولو قدم معهم عدد كبير من المهاجرين لكان ذلك ضرباً من التحدي الذي له مضاعفاته، ثم ان أبا بكر سبق عمر إلى الكلام فلامس بحكمته ضمائر القوم، واستطاع بلباقته أن يبعث الكثير منهم على التردد في تأييد الخطة العَجلى التي ركبها الحباب .. ثم جاءت كلمات عمر وكانت مزيجاً من الوعظ والشدة رد بها على الحباب أقسى رد، فأشعره أن طريقه شائك لن ينتهي إلى خير .. ثم ذكّرهم واستحلفهم: (أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ؟.. فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقام أقامه فيه رسول الله !.)

وما أسرع ما هزّ ضمائر الأنصار بهذه الكلمات المؤثرة فإذا الأصوات ترتفع: « لا تطيب .. ونستغفر الله » .

ولم يكن أثر أبي عبيدة بأقل من ذلك في نفوسهم حين

حَرَّك مشاعرهم بمثل هذه الكلمة المخجلة المثيرة للنخوة : (يا معشر الأنصار . كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير .)

هذه التوفيقات الإلهية أغلقت منافذ الشيطان، وأطفأت أولى الفتن التي تعرض لها الاسلام بعد رسول الله .

ومن هذا العرض لأحداث يوم السقيفة يتضح بجلاء أن بيعة أبي بكر كما وصفها الفاروق كانت فلتة وقى الله شرها، لأنها لم تسبق بتدبير ولا تقدير ، وإنما ساقت اليها ظروف قاهرة فكانت عملية سريعة ، قُصِد بها بتر أصابع الفتنة التي كادت تعصف بالمجتمع الغض ، فتنسفه من أساسه لولا حماية الله ، وتيقظ الضمير الاسلامي الذي لم تستطع المطامع الشخصية أن تقصيه بعيداً .

٣ ــ البيعة العامة :

وكان لا بد من استكمال البيعة العامة، وقد تم ذلك في غد السقيفة وفي مسجد رسول الله . بينما الرسول لا يزال مُسَجّى في بيته ، لم يفرغ الصحابة لدفنه قبل آخر الليل من ذلك اليوم، وما ذلك إلا لأهمية الموقف الذي كان يتطلب من رجال الساعة ألا يَدَعوا في القضية ثغرة لنكسة جديدة . وجلس الصديق على المنبر .

واستمر الناس يتتابعون عليه حتى المساء وكان كبار

الصحابة حاضري المدينة، فكان هذا ميبتّراً لمشاركتهم جميعاً في البيعة فلم يتخلف منهم أحد، إلا سعد بن عبادة الذي كبر عليه أن ينكسر رأيه فاصرّ على الامتناع، فترك وشأنه تجنباً للفتنة التي كانت متوقعة لو اتخذت معه وسائل الشدة، وتخلف معه في بعض الروايات جماعة من الخزرج. والأرجح أنهم أولاده وبعض قرابته، على أنهم ما لبثوا إلا قليلاً حتى بايعوا، وكذلك تخلف من قريش علي والزبير وطلحة وخالد بن سعيد بن العاص، ثم خرجوا من التردد إلى المبايعة، وبذلك تم الاجتماع على الصديق، لم يخرج على هذا الاجماع سوى سعد ..

٤ ـ موقف علي ومن معه :

وروي أن علياً تأخر عن البيعة ستة أشهر حتى وفاة فاطمة (رض) ونقل عنه في تعليل ذلك أقوال كثيرة منها أنه آلى حين قبض رسول الله ألا يرتدي برداثه إلا إلى الصلاة حتى يجمع القرآن. وعن عائشة أن أهل بيت علي قد اجتمعوا اليه وبعثوا إلى أبي بكر، وهناك وجه الصديق اليهم عتاباً لطيفاً، وكان فيما قاله لهم : (.. ووالله لأن أصِلَكم أحبُّ إلي من أصل أهل قرابتي لقرابتكم من رسول الله ﷺ ولعظيم حقه). وتكلم علي (رض) فقال : لأبي بكر : والله ما نفسنا عليك خيراً جعله الله لك .. ولكنا كنا من الأمر حيث قد علمت، فتفوّت علينا فوجدنا في أنفسنا، وقد رأيت أن أبايع وأدخل فيما دخل الناس) . ...

وجاء علي للبيعة وارتقى الصديق المنبر وذكر للناس الذي كان من أمر علي ، ثم قام علي فذكر فضل الصديق وسنه وأهليته لما ساق الله إليه من الخير ثم تقدم من أبي بكر فبايعه ثم لم يزل سامعاً مطيعاً له ..

ولنقف قليلاً على تعليل علي لتأخره . فهو متأثر لأنه لم يشرك في موضوع اختيار الخليفة ، وإنما قضي بالأمر في غيابه .. وفي هذا ظاهراً ما يشعر بالإهمال .. ومثل هذا التعليل قد تكررت روايته في أصح المصادر ، ومن ذلك ما ذكره الذهبي في تاريخه — ٣٤٠ — عن لسان علي والزبير من قولهما في الرد على أبي بكر : (وما غضبنا إلا لِأَنْ أُخِّرنا عن المشورة .. وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله) . والظاهر أن علياً والزبير كانا يريان إمكان تأخير البت في أمر البيعة يوم السقيفة ريثما يتفاوض شيوخ الصحابة في الموضوع ، فلا يقطع به بعض دون بعض . وهو اعتراض وجيه ، لولا أنه يُغفل تقدير الظروف القاهرة التي جرّت الصديق والفاروق وأمين الأمة إلى تلك الفلتة العجلى دون سابق تفكير أو تحضير .

ومهما يكن فإن مبايعة علي واخوانه المتخلفين معه قد وضعت حداً لمحاولة المشاغبين وتفسيرات المتقولين ، وأتاحت لقضية الإسلام أن تأخذ طريقها إلى الأهداف العليا ،

في تعاون تامّ بين مجموع الصحابة ، حتى أصبح في وسعنا القول بأن حكم الصديق إنما كان حصيلة هذا التعاون الذي انتفع بجميع طاقات المدرسة النبوية، وبذلك يتحقق قول عمر للصديق يوم السقيفة: ان قوتي لك مع فضلك وقد صح ما قال فكانت قوة عمر وعلي وسائر الصحابة في خدمة الإسلام ، وراء الرجل الذي كان باعتراف الجميع أنضج ثمرة في غرسة النبوة ، وطبيعي أن تنتهي هذه النتيجة بالمسلمين إلى الاطمئنان، بعد ذلك القلق الذي ملأ صدورهم خوفاً على وحدتهم أن يصدعها الحدثان، وقد سجل لنا أحد شعرائهم – ابن أبي عزة الجمحي – في أبياته التالية صورة حية موجزة لتلك الأحداث وما أعقبها من الفرحة الغامرة :

شكراً لمن هو بالثناء خليقُ
ذهب اللَّجاجُ وبويع الصديقُ
من بعد ما دحضت بسعد نعلُه
ورجا رجاء دونه العَيّوق
جاءت به الأنصار عاصبَ رأسِه
فأتاهم الصديق والفاروق
وأبو عبيدة والذين إليهم
نَفْسُ المؤمل للبقاء تشوق
كنا نقول لها عليّ والرضا
عمر وأولاهم بتلك عتيق

فدعت قريش باسمه فأجابها
ان المنوّهَ باسمه الموثوق

فالشاعر هنا ينقل لنا في أمانة وقائع الخلاف وموقف العامة منها . فهناك لجاج كان موشكاً أن يدفع بالناس إلى أفدح الأخطار ، فزال ببيعة الصديق ، ويصور استياء الناس من موقف سعد ، ثم الأمل الكبير الذي كانوا يعلقونه على الثلاثة الكبار ، وينقل إلينا أخيراً إجماعهم على أن علياً وعمر والصديق هم الذين ينحصر فيهم هوى الكافة كمرشحين للخلافة ، مع اتفاقهم على إيثار الصديق .. ولذلك كان حبور القوم كبيراً بتحقق أمنيتهم في التفاف الجميع حول الرجل المفضل ، ومما يؤيد أمانة الشاعر في نقل هذه الوقائع والمشاعر أقوال الصحابة أنفسهم .. التي وصلتنا من أوثق المصادر، ونقلنا بعضها وهي متفقة على أن اختيار الصديق كان اختياراً للأفضل، بل أصح اختيار عرف في تاريخ الولاية ، ولعل أبرز صورة لوحدة الأمة خلف الصديق أن سعد بن عبادة أصبح وحيداً في الامتناع عن بيعة الصديق. ثم عن بيعة من بعده . حتى لقي أجله منبوذاً في حوران سنة خمس عشرة ، غفر الله له .

٥ ـ سياسة الصديق :

لا يخطىء الباحث إذا تصور أن كل مسلم يريد أن يعلم الطريق التي سلكها الخليفة الأول في تدبير الأمة بعد انقطاع

الوحي . لقد وجد المسلمون سعادتهم في الخضوع لقيادة رسول الله ، ثقة منهم بأنه سائر فيهم بتوجيه ربه وبعصمته ، فلا مجال لتوقع الخطأ أو الانحراف عن السبيل السويّة . ولكن الرسول قد مضى لسبيله، وهم الآن أمام بشر مثلهم لا يفضلهم بوحي ولا عصمة، فطبيعي أن يتساءلوا عن الطريق الذي سيحملهم عليها ... ولم يكن هذا ليفوت الصديق فهو يدرك أن عليه تبيان سبيله للناس ليكونوا منها على بينة . وهذا ما فعله في خطبته التي أعقبت البيعتين .

حمد الصديق ربه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : (أيها الناس . قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله . لا يدعْ أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل .. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) .

وقد تعددت الرواية لهذه الخطبة ، فتعددت صيغها . وكان في بعضها ما ليس في بعضها الآخر ، مما يدل على أن كل راو نقل منها القسم الذي أهمه . ومن الصيغ التي لم ترد هنا كاملة قوله (قد وليت عليكم ولست بخيركم . ولكن نزل القرآن وسنّ النبي ﷺ السنن فعلّمنا وعلمنا .. انما أنا متبع

ولست بمبتدع ..) وليس ثمة من حاجة للوقوف على كل فقرة في الخطبة فهي بيان سياسي شديد التركيز والوضوح . ولكن لا بد من التنبيه إلى بعض الخطوط ذات الطابع الخاص بشخصية الخطيب المميزة ..

فالصديق هنا يعتبر العلم بالكتاب والسنة أساس التفاضل بين الناس ، ومن ثم يعتبر مهمته الأساسية تحقيق موجبات هذا العلم بمواصلة طريق الرسول ﷺ دون أي انحراف ، ثم لا ينسى أن يذكرهم واجبهم الأكبر في مراقبة أعماله لمساعدته على الانضباط ضمن نطاق الحق ، فيعينوه إذا استقام ، ويقوّموه إذا التوى ، وطبيعي أنه يسجل بذلك اطلاقه لحرية القول في حدود المصلحة العامة ، فلا يضارّ قائل ولا ناصح ، وبما أن العدالة هي غاية الشريعة فهو سيسلك بهم أقوم السبل اليها بالمساواة التامة بين الناس حتى لا يحيف قوي على ضعيف .. ثم أتى دور الجهاد . فعلى كل منهم أن يتهيأ للنهوض بواجبه، ولتأمين طريق الدعوة في الظروف العصيبة التي لا بد من مواجهتها إذا شاؤوا الحفاظ على عزتهم . وإنه لبيان على صغره كبير يحدد معالم الطريق . ويضع كل فرد من الأمة أمام مسئوليته ، ثم يقدم للناس جواب السؤال الذي يجب أن يخالج كلاً منهم بإزاء الوضع القائم ، فكأنه يقول لهم ان عهدي الجديد لن يكون سوى امتداد لخطة النبوة .. فلئن انقطع الوحي بوفاة رسول الله ، ان شريعته لكفيلة بتحقيق كل خير

وتجنب كل شر وتقديم الحل الأقوم لكل مشكلة يمكن أن تعترض طريقكم في هذه الحياة .

٦ ـ مرتب الخليفة :

ولم يكن بد لأبي بكر من السعي لرزق عياله ، بعد أن أنفق كل ما يملك في سبيل الله، فغدا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة فراجعاه في ذلك وذكراه بأن مهمته تقتضي التفرغ التام لمصالح المسلمين ، وعلى المسلمين أن يؤمنوا له رزقه وعياله .. ومن ثم فرض له ما يسدُّ حاجته: بردان..إذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما،وظهره (دابته) إذا سافر، ونفقته على أهله كنفقته قبل أن يستخلف .

وفي رواية عن عائشة أنه مكث بالسنح ستة أشهر بعد استخلافه، يغدو على رجليه أو راكباً إلى المدينة فيصلي بالناس، ويغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح .. ثم نزل إلى المدينة فأقام بها ونظر في أمره فقال : لا والله ما يصلح أمر الناس بالتجارة وما يصلح لهم إلا التفرغ وما بد لعياله مما يصلحهم . فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم .. فلما حضر الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فدُفع إلى عمر أرض ولَقوح ـ ناقة ـ وعبد وقطيفة ـ ثوب ـ ما يساوي خمسة دراهم ...

وكان ذلك من أبي بكر درساً تعلم منه عمر ومَن بعده أن الولاية ليست وسيلة إلى الدنيا ، ولكنها عبء يفرض على صاحبه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسَب ، ويزن عمله قبل أن يوزن عليه .. ولذلك قال عمر رضي الله عنه يوم تسلم وصية الصديق ، وصدق فيما قال : لقد أتعب أبو بكر مَن بعده !....

جيش أسامة وفتنة الردة

النفاق يطل برأسه في مكة والمدينة ، واليهودية والنصرانية تشرئبان لتجدا المنفذ للانقضاض .. والمسلمون أصبحوا كأنهم الغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، لفقد نبيهم ، وقلة عددهم وكثرة عدوهم ، والقبائل تتسابق للارتداد كلياً أو جزئياً !

هذه صورة مصغرة للواقع الذي أحاط ببعثة أسامة ، وكل جزء منه كاف لاعادة النظر في موضوع تسييرها في الاتجاه الذي ألّف رسول الله هذه البعثة من أجله .

لقد أعدّ رسول الله ﷺ هذا الجيش للزحف إلى تخوم البلقاء من رأس الشام ، رداً على عدوان الروم ومَن تواطأ معهم من العرب ، وثأراً لدم شهداء مؤتة . وكان مثل هذا الرد ضرورة لا مناص منها لتثبيت الدولة الجديدة وتوكيد هيبتها ، وبعث الطمأنينة في نفوس المسلمين إلى توافر الحماية

الكافية لهم .

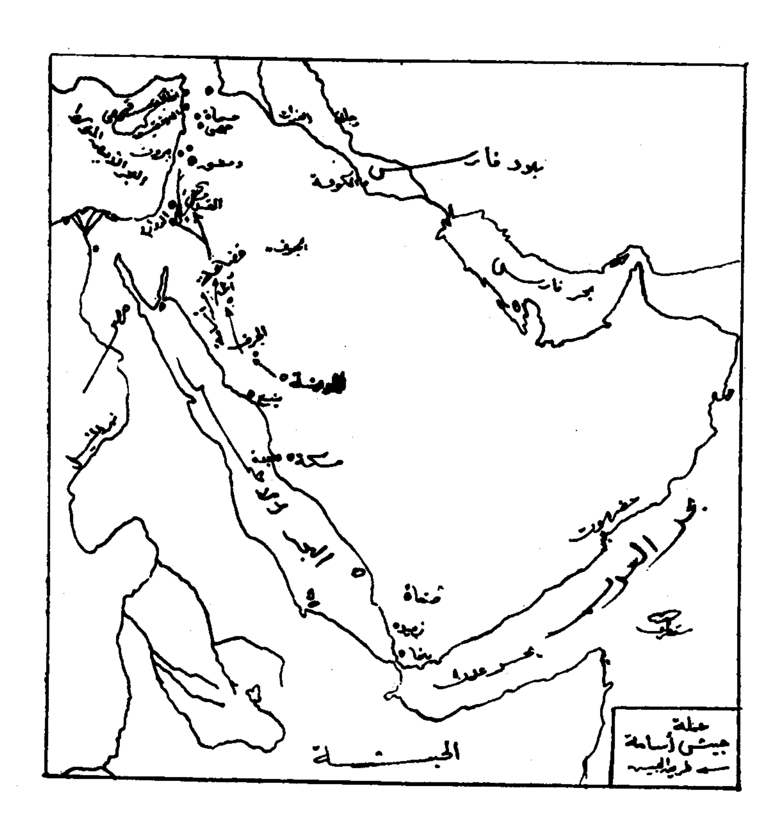
ومن أجل ذلك رأينا رسول الله ﷺ يلح حتى آخر أيامه على ضرورة إنفاذ هذا الجيش ، مهما تكن الظروف والعوائق ..

لكن الأوضاع التي واجهت الدولة منذ وفاة مؤسسها المعصوم ، اضطرت الصحابةَ أن يفكروا بموضوع هذه البعثة على ضوء الظروف الطوارىء ..

ان بقاء هذا الجيش في المدينة قوة من شأنها أن تخيف الذين في قلوبهم مرض ، سواء داخل البلد أو خارجه ، فتجعلهم يترددون طويلاً قبل الإقدام على أية خطوة شاذة . ثم يأتي موضوع القيادة .. فأسامة دون العشرين من سنيه ، وفي جيشه شيوخ المهاجرين والأنصار . وهذا أمر غير مألوف في وسط توارث احترام الشيوخ ، وتقديمهم على الشباب أياً كانت كفاية هؤلاء !.. ولئن كان اعتراض هذا الوضع مستحيلاً في عهد رسول الله ﷺ لقد اختلف الأمر الآن ، وجاءت العوامل الطارئة نفسها تتطلب إعادة النظر في هذا الترتيب .

وهكذا أظهر شيوخ الصحابة رأيهم صريحاً في أمر هذه القيادة ، بعد أن رأوا إصرار الصديق على إنفاذ الجيش ، فطلبوا إليه تغيير القائد ، وتوسطَ الأنصارُ لمراجعته في الأمر عمرُ بن الخطاب .. ولكن الصديق كان عنيف الرد .. لقد

وثب من مجلسه وآخذ بلحية الفاروق يقول له (ثكلتك امك يابن الخطاب !.. استعمله رسول الله وتأمرني أنْ أنزعه !!.) وحتى أسامة نفسه كان في جانب القائلين ببقاء الجيش لحماية المدينة أولاً ، وعندما رأى إصرار الصديق على إنفاذه كان يود من أعماقه لو أُعفي من قيادته ، ليكون واحداً من جنوده لا أكثر .. لما رآه من مراجعة الصحابة في شأنه ، وعدم رضاهم



عن إمارته عليهم . الأمر الذي من شأنه أن يجعل طاعتهم له أمراً مشكوكاً فيه على الأقل !.. والطاعة في العمل العسكري أول عوامل النصر ، وكل تردد في أمرها مجلبة للإخفاق الرهيب .

.. والعاقل لا يشك لحظة في أن وراء ترتيب الرسول لأمر الجيش ، واسناد قيادته لأسامة، حكمةً لا تبدو للناظر إلا بعد تدقيق .. ولعل من بدائه هذه الحكمة تدريبٌ صحابته على الخضوع للنظام ، وإعتبار الكفاءات وحدها ، دون نظر إلى السن .. وسنرى كيف تحقق ذلك وأكثر منه في هذا البعث المبارك !.

كان على الصديق أن يعالج كل هاتيك العوائق ، التي وضعت في طريق تسيير جيش أسامة ، وأول ما يجب هنا مقاومة روح الخوف على المدينة ، التي راودت الصحابة جميعاً ، ولا سبيل للقضاء على هذا الخوف بالاعتماد على المنطق الحسابي ، لأن كل شيء في الظاهر يجعل الصواب في جانب المعارضين لانفاذ الجيش ، لذلك لم يجد الصديق وسيلة للاقناع إلا بإثارة روح الطاعة لأمر رسول الله ﷺ في صدور صحابته ، لذلك نسمعه يهتف بمراجعيه في هذا الشأن (والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ..! ولو أن الطير تخطفتنا ، ولو ان الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزنّ جيش أسامة ..)

وتصميم كهذا أفضل تعبير عن شخصية الصديق ، التي امتازت دائماً بالإقدام الذي لا يعروه التردد ، في كل أمر آمن بصوابه ، فكيف إذا كان أمراً صادراً عن رسول الله ﷺ ! وهو الذي أعلن في خطبته يوم البيعة الثانية : أن أساس سياسته اتباع رسول الله وتجنب كل مخالفة له . وهكذا كان عليه أن يثبت وفاءه بعهده ، وأنه بتسييره جيش أسامة ينقل أول خطوة في طريق السياسة النبوية ..

وتم ما أراد رسول الله ﷺ ، ونفذ خليفته أمره بتوجيه الجيش وكان ذلك في اليوم الثاني لبيعته ، وقد خرج أبو بكر إلى الجرف ليشيع المجاهدين ، فسار معهم ماشياً ، وأسامة راكب ، فألح أسامة على الخليفة بالركوب فأبى . وهمّ أن ينزل ليساويه ، فأقسم الصديق لانه لن يركب وإن أسامة لن ينزل ، وجعل يوصيه قائلاً (اصنع ما أمرك نبي الله ببلاد قضاعة .. ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ) ..

وكان فيما أوصى به الجيش (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تُمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ، ولا تعزقوا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل .. وإذا لقيتم قوماً فَحَصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه [1]

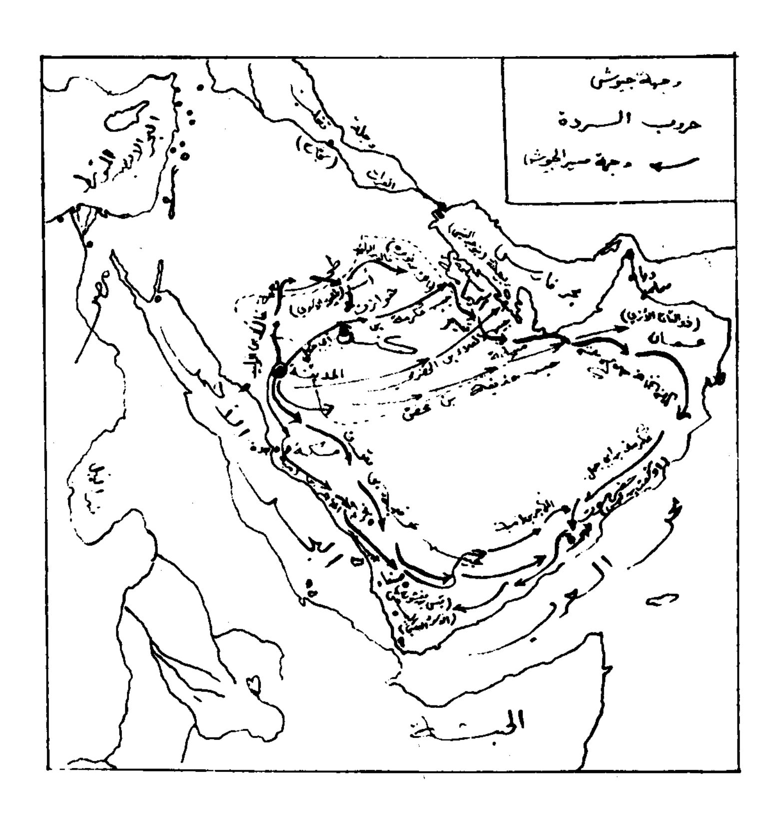
وهي وصية جامعة توضح مخطط الصديق في معاملة

---

(١) الظاهر أن هذه كانت علامة المحاربين .

المحاربين ، فهو يريد من أسامة أن يلتزم وصية رسول الله ، فلا يهمل منها شيئاً ، ثم يريد منه ومن جنوده أن يلتزموا حدود الاسلام في معاملة العدو فيتجنبوا الظلم على أنواعه ، ويمسكوا سيوفهم فلا يعملوها إلا في رؤوس المقاتلين وحدهم ..

ثم استأذن أسامة باستبقاء عمر ليعاونه في شئون الدولة فأذن له .. وفي ذلك صورة أخرى من التزام الصديق لأمر



رسول الله ، إذ كان يرى في إمارة أسامة وضعاً خاصاً فوق صلاحيته ، فلا يجيز لنفسه أن يتصرف بأمر من أمور ذلك الجيش دون إذن من قائده ، الذي صدر قرار توليته من قبل الرسول ﷺ مباشرة ، ومضى جيش أسامة بمئاته السبع ، يشق طريقه بين قبائل البادية ، فلا يمرون بقبيلة تريد الارتداد إلا قالت: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم .. ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم .

ومرت قرابة السبعين يوماً على تلك المسيرة حقق خلالها جيش أسامة الخير الكثير ، فأوقع بالمرتدين من قضاعة ، وهزموا العدو في كل لقاء ، ثم عادوا غانمين لم يخسروا شهيداً. ولقد يقال بأن جيش أسامة لم يحقق أي فتح في هذه المسيرة ، ولم يخض أي معركة حاسمة! . وهذا صحيح غير أن النتائج التي حققها لا تقل أهمية عن الفتوح . ذلك أنه بعث الرعب في قلوب المترددين ، وحقق ما أراده الرسول ﷺ من تثبيت هيبة الإسلام في نفوس أعدائه ، الذين يتربصون به الدوائر ، وهكذا كان في خروج جيش أسامة في تلك الظروف الحرجة أكبر المصالح ، حتى رُوي عن أبي هريرة قسمه ثلاثاً أنه لولا أن أبا بكر قد استُخلف ما عُبد الله .. ثم أوضح ذلك بما حققه أسامة من تثبيت هيبة الإسلام . ومنع مترددي القبائل من الارتداد .

ونحن نستطيع أن نتبين اليوم هذه الحقيقة ، حين نتذكر أن جميع الصحابة كانوا يطالبون باستبقاء جيش أسامة إلا أبا بكر ، ومعنى ذلك أنه لو كان الأمر لغيره لاختلف مجرى

التاريخ ، ولانتهى الأمر بالمسلمين إلى غير النتائج التي حققها خروج هذا الجيش .

أخبار الردة :

قال محمد بن إسحق (ارتدت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ . ما خلا أهل مكة والمدينة .

ارتدت أسد وغطفان بقيادة طليحة الأسدي الكاهن ، وكندة ومن يليها بقيادة الأشعث بن قيس ، وربيعة مع المعرور ابن النعمان بن المنذر ، وكان الاسود العنسي كاهن مذحج قد أعلن ردته وشره آخر عهد الرسول ﷺ ، وملأ اليمن شراً ، حتى يسر الله قتله .. وكذلك كانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة الكذاب وانتشر الارتداد في سليم وتميم التي انضم أكثرها إلى سجاح الكاهنة النصرانية .

وهذه أيضاً صورة أخرى للوضع الذي واجهه الخليفة الأول في أنحاء الجزيرة المختلفة .. انه لوضع رهيب يطيش معه وعي الحكماء البسلاء فلا يدرون ماذا يجب أن يعملوا . لأن كل عمل يفكرون به ليس من شأنه أن يبعث الطمأنينة في نفوسهم إلى حسن المصير ، إلا أن يأتي الحل — كما حدث يوم السقيفة ـ من وراء الطاقة البشرية ،ومن وراء حدود التخطيط القائم على حساب الأرقام ..

إن وفاة رسول الله ﷺ أحدثت فراغاً هائلاً . كالذي

تجده الطائرة عندما تصادف فجوة فضائية . فإذا هي تهوي وقد تعطل مفعول أجهزتها حتى تصل إلى مأمنها من الهواء ، فتعود محركاتها للعمل وتستأنف مسيرتها بانتظام ..

هكذا وجد المسلمون أنفسهم فجأة أمام فجوات ، كل واحدة منها تنذر بالشر المدمر المستطير .. وقد ضاعف عوامل الاضطراب والخطر قصور أفهام هؤلاء المرتدين عن الاحاطة بمعنى النبوة وحقائق الرسالة الاسلامية الخالدة ، فبعضهم لم يكن يفهم عن الاسلام أكثر من أنه خضوع محدود لشخص الرسول نفسه ، ما دام قائماً منظوراً . فإذا أدركه الموت فقد انتهت علاقتهم بالدولة التي أقامها . لأنها تقتضيهم الخضوع لواحد أو آحاد من دون أن يكون لهم صفات الرسول المميزة .. وقد اتضح هذا العجز العقلي على لسان الحطيئة الذي يعلن وجهة نظر هذا الضرب من أهل الردة إذ يقول :

أطعنا رسولَ الله ما كان بيننا
فيا لَعبادِ الله ما لِأبي بكر ...
أيورثنا بكراً إذا ماتَ بعده!
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

فهو — ومعه أهل رأيه — لا يفهمون عن الخلافة بعد رسول الله إلا أنها مصادرة لحرية الناس بالقوة من شأنها أن تجعلهم كالمتاع الموروث ، ينتقل من يد إلى أخرى.وقد صور القرآن العظيم هذا الضرب من الأجلاف منذ نزل فيه قول

الله: (الأعرَابُ أشدّ كُفْراً ونِفاقاً ، وأجْدَر أن لا يَعْلَموا حُدودَ ما أنزَل الله ..) التوبة ٩ — ٩٧ .

ثم هناك آخرون كانوا أقل غِلَظاً من هؤلاء ، فهم راضون بالاسلام صلاة وصياماً .. ولكنهم لا يرون وجوب أداء الزكاة إلى الخليفة ليردها على الفقراء .. وحجتهم في ذلك قول الله (خُذْ مِنْ أمْوالهم صَدَقَةً تُطَهّرهم وتُزَكّيهم بها ، وَصَلِّ عليْهِم . إنّ صلاتَك سَكَنٌ لهم) التوبة ٩ — ١٠٣ . فالزكاة بنظرهم إنما تدفع للنبي الذي يأخذها والذي ينتفعون هم بصلاته لأنها سكن لهم .. أما ان تستمر حقاً عليهم إلى ما شاء الله فذلك ما وقفت عقولهم دون فهمه .. لأنهم لم يستطيعوا كذلك أن يفهموا الاسلام دولة تقيم حدود الله ، وتتولى قيادة البشرية في الطريق الذي رسمه الوحي ، حتى تقوم الساعة ..

يضاف إلى هؤلاء وأولئك صنف آخر أشدّ إغراقاً في الجاهلية وانحرافاتها ، هو أولئك الكهنة الذين لم يرتفع تصورهم للنبوة عن حدود المستوى الذي يعهدونه في أنفسهم .. كالأسود العنسي وطليحة الأسدي ومسيلمة بن حبيب الحنفي . وهو تصور من شأنه أن يَهيجَ كَلَبَهم إلى السلطة والنفوذ ، ولا سيما عندما يرون حولهم أناساً من أجلاف الأعراب ، يمكن استغلالهم والتسلط على عقولهم بأيسر الوسائل .. وقد ساعدهم على التمكن منهم تلك النزعات العصبية ، التي تشد الأعرابي

إلى قرابته برباط من الجاهلية ، التي تفرض عليه أن ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً .. فمثل هؤلاء الأعراب الذين عجز إدراكهم عن الارتفاع إلى مستوى المفهوم الاسلامي ، ليس أسهل على الدجالين من استثارتهم باسم العصبية القبلية ، التي تجعل واحداً مثل عُيينة بن حصن سيد فزازة يقول لقومه: (والله لنبيٌّ من بني أسد أحب إليّ من نبي من بني هاشم ، وقد مات محمد وهذا طليحة فاتبعوه ..) ولا غرابة في مثل هذا القول يصدر عن رجل لم تخالط بشاشة الايمان قلبه . وإنما كانت صلته برسول الله صلة الطامع الذي تستهويه المنفعة ، فيميل إلى مصدرها ، فإذا انقطع أمله بها بحث عن مرتزق آخر.. وهكذا يمكن تلخيص دوافع الارتداد في هذه الأسباب : غلظ في الأذهان لم تتح الأسباب الكافية لتهذيبه بأدب الاسلام، تؤازره عصبية جاهلية لا تفرق بين الحق والباطل . ثم مطامع شخصية لمغامرين عرفوا كيف يستغلون هاتيك الظروف بضروب من الدجل . من شأنها أن تمكن لصاحبها من عقول هذه القطعان من أشباه الناس .

امتحان :

ومهما يكن من شيء فقد شاء الله أن تكون فتنة الردة ثانيَ أكبر امتحانين مر بهما الاسلام عقب وفاة رسول الله ﷺ لأنه سيكون أداة الكشف عن كل من المؤمنين والزائفين ، وبه يمتاز كل من الفريقين عن الآخر ، بالموقف الذي يسجل

واقعه على وجه من الصراحة لا لبس معها.. وكما امتُحن إيمان المؤمنين في بدر وأحد وغيرهما ، فحيٌّ من حي عن بينة ، وهلك من هلك عن بينة ، هكذا يتعرض المجتمع الاسلامي اليوم لامتحان آخر لن يكون أقل أهمية ولا أقل عسراً .. امتحان يتوقف عليه إثبات مدى صلاحية هذا الاسلام للبقاء ومدى ثقة أهله بوعد الله .

ولقد كانت أولى ثمرات هذه الصدمة تجمع المؤمنين في المدينة ، بازاء الخطر المحدق بهم ، فزالت بقايا الخلاف حول الخلافة ، ووقفوا صفاً واحداً وراء الصديق ، كشأنهم من قبلُ خلف رسول الله ﷺ ، وقد تجلت هذه الوحدة منذ اللحظة الأولى ، التي أحسوا فيها بالخطر . تجلت في اختلافهم حول الطريقة التي يجب اتخاذها لرده، ثم تجلت في اتفاقهم على طاعة الصديق في كل ما قرره بشأن هؤلاء المرتدين ..

ومرة أخرى تثبت الأحداث أن الصديق رجل الساعة ، المختار لأضخم الاعباء ، ولمواجهة أفدح النوازل ، فكأنما إياه عنى الشاعر بقوله :

وما سوَّدتني عامر عن وراثة
أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنني أحمي حماهـا وأتقي
رداها وأرمي من رماها بمنكبي

عمر يقبل رأس أبي بكر

يقول ابن كثير في تاريخه « .. قلّ الجند عند الصديق – بعد إنفاذ جيش أسامة – فطمعت كثير من الأعراب في المدينة . وراموا أن يهجموا عليها . وجعلت وفود العرب تقدم المدينة . يقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة .. » وجاء الصحابة يجادلون الصديق في أمر هؤلاء المرتدين . ويدعونه إلى مهادنتهم وقبول عروضهم . ريثما يتمكن الايمان من قلوبهم . فيؤدون الزكاة عن طواعية .. حتى عمرُ الذي امتاز بالشدة في الحق راح يقول له: « علام تقاتل الناس.. وقد قال رسول الله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟) .

فهؤلاء بنظر عمر مسلمون حرام الدم . وان منعوا

الزكاة ، ولكن الصديق يفقه من الحديث ما فات ذهن عمر ، فيرى في الاستثناء (إلا بحقها) ما يبيح دم المانعين ، ولذلك رد عليهم في تصميم «إن الزكاة حق المال .. والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة »ومما قاله لعمر :«أجبار في الجاهلية وخوار في الاسلام ! قد انقطع الوحي وتم الدين .. أينقص وأنا حي. !!. » .

وخطب الصدّيق في المسلمين يذكرهم ويعظهم ، ويشد عزائمهم على الجهاد ، حتى يحقق الله لهم ما وعدهم من الاستخلاف في الأرض: (والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفي لنا عهده .. قضاء الله الحق ، وقوله الذي لا خلف له « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم .. » .

وفي هذه الكلمات القليلة صورة تامة للصديق ، الذي ما كان ليتخذ مثل هذا الموقف العنيف اعتماداً على جند أو اعتداداً بقوة . بل اندفاعاً مع إيمانه المطلق ، ذلك الايمان العجيب الذي يسوقه إلى المغامرة بمصير الأمة كلها ، ثقة بموعود الله مع الأطمئنان التام إلى نصره !!.

وسرى روح هذا التصميم الصديقي إلى أعصاب عمر وإخوانه . سريان النار في الحطب الجذل . فإذا هم وراءه في كل صغيرة وكبيرة . وكأنما عمر كان يعبر عن خواطرهم جميعاً حين قال: « فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي

بكر للقتال فعرفت أنه الحق ! »

المعركة الأولى :

وقد تبين من مجرى الحوادث أن بغض وفود العرب ، التي قدمت المدينة لمفاوضة الخليفة ، لم يكن غرضها من ذلك سوى استكشاف حالة المسلمين ، وتعرّف واقع قوتهم وضعفهم ليقرروا على ضوء ذلك كيفية مهاجمتها !. وقد ورد في الأخبار الموثوقة أن أسداً وغطفان – بعد أن اجتمعتا على طُليحة – بعثوا وفودهم إلى المدينة فنزلوا على وجوه الناس .. وفاوضوا الصديق على الصلاة دون الزكاة ، فردهم وشفعاءهم من الصحابة قائلاً : « والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم ! » فرجعوا إلى عشائرهم يخبرونهم بقلة أهل المدينة وأطمعوهم فيها !..

وما كان مثل هذا ليغيب عن فطنة الصديق فقال للمسلمين : « لقد رأى وفدهم منكم قلّة . وإنكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد .. فاستعِدوا وأعِدوا .. »

ولم يتريث بانتظار الظروف ، بل عمد إلى تنظيم الدفاع عن المدينة ، فجعل على أنقابها الحرس يبيتون حولها ، وأمّر عليهم طائفة من كبار الصحابة علياً والزبير وطلحة وسعداً وابني عوف ومسعود . ووضع بقية المحاربين في حالة استنفار ، حتى كانوا يبيتون في المسجد انتظاراً للطلب . وسرعان ما تحقق توقع الصديق ، فإذا القوم يطرقون المدينة في غارة

مدبرة ، وقد خلفوا بعضهم في (ذي حسى) ليكونوا لهم ردْءاً ، ويومئذ بدأت المعركة الأولى مع المرتدين . إذ خرج الخليفة في أهل المسجد لمقابلتهم ، فانسحبوا من أمامهم والمسلمون يتبعونهم حتى مكانِ الردْء .. ولكن مؤامرتهم لم تنجح ووقعت بهم الهزيمة ، فكان ذلك أول الفتح !

وتابع الصديق مناوراته لإرهاب العدو ، فخرج بالمسلمين إلى (الربذة) حيث نزل جماعات من مرتدي عبس وذبيان وكنانة ، فقاتلهم حتى انهزموا ، وعزم على الاستمرار في قيادة المجاهدين . ولكن الصحابة ألحوا عليه بالرجوع لتدبير أمر المسلمين . على أن يبعث لقتال الأعراب غيره .. وأخذ علي رضي الله عنه يومئذ بزمام ناقته يقول له: « شِمْ سيفك ولا تفجعنا بنفسك ، فوالله لئن أُصِبْنا بك لا يكون للاسلام بعدك نظام أبداً » .

واقتنع الصديق بهذا الرأي ، ووافق ذلك عودة جيش أسامة بالغنائم والنصر ، فقسم البعوث ، وأناط كل بعث بقائد ، فعقد أحد عشر لواءً لأحد عشر قائداً ، فسير كلا منهم في جهة ، وزودهم بكتاب أمرهم أن لا يبدأوا قتالاً إلا بعد تبليغه من يتصدون له .. وفي الكتاب إجمال شاف لرسالة الاسلام ، ووجوب الثبات عليه ، والتزام أحكامه ، دون أي تفريق بين عهد رسول الله ﷺ وما بعده . وفيه إنذار للمصرّين على ارتدادهم بأقسى العقوبات ، وتفويض

للقادة باتخاذ التدابير الزاجرة معهم .

واستشار الصديق المهاجرين والأنصار في مَن يبدأ من أهل الردة ، فاختلفت آراؤهم ، فقرر أن يبدأ بطليحة الأسدي المتنبيء ، فوجه إليه خالداً .

حروب الردة :

وسار خالد حتى نزل على طيء ، وانضم إليه عديّ بن حاتم ومن ثبت معه على الإسلام من تلك القبائل ، ثم قصد إلى طليحة على ماء لبني أسد فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزم طليحة ومن معه ، ولحق بالشام . ولكن فلول أصحابه ما لبثوا أن اجتمعوا على (أم زَمْل) سلمى بنت ملك بن حذيفة ، فحرضتهم على استئناف القتال ضد خالد ، وانضم اليها فلول أخرى من سليم وطيء وهوازن وأسد ، فكوّنوا بذلك جيشاً ذا خطر ، وما إن سمع خالد بأمرهم حتى شخص اليهم ، واشتبك معهم في حرب ضارية انتهت بهزيمتهم ومقتل صاحبتهم ، بعد أن سقط حول جملها مئة قتيل . وبذلك انتهى أمر من كان مع طليحة من القبائل ، إذ عادوا إلى الإسلام مبايعين ومسلّمين أسلحتهم .

ثم توجه خالد إلى اليمامة لحرب مسيلمة الكذاب ، وبعد قتال رهيب قتل الله مسيلمة وقتل معه عشرة آلاف من رجاله ، وسقط من المسلمين قرابة ألف شهيد ، بينهم عدد من كبار

المهاجرين والأنصار .

وارتدت ربيعة بالبحرين ، إلا الجارود بن عمرو ، فإنه ثبت على الإسلام في من تبعه من قومه عبد القيس ، وحاصر المشركون العلاء بن الحضرمي عامل رسول الله ﷺ على البحرين ، ولقي المسلمون من حصارهم عنتاً شديداً ، ولكن الله فرج كربهم إذ جاءتهم الأخبار ذات ليلة بأن المشركين قد أخذهم السكر ، فأغار عليهم المسلمون بقيادة العلاء ، فأوقعوا بهم ، ثم استأنفوا زحفهم ، فقاتلوا المشركين حول مدينتهم ، فلجئوا إلى التحصن بها ، ولكن المسلمين ضيقوا عليهم حتى عرضوا الصلح فقبل العلاء عرضهم ، ونال المسلمون من ذلك غنائم طائلة .

وفي عُمان ادّعى ذو التاج الأزديّ النبوة ، واستجاب له الكثيرون من ذوي الجفاء والغباء ، فاشتدت شوكته وتغلب على المِنطقة كلها . ولم يكن لدى المسلمين هناك قوة كافية لمجابهته ، فأرسلوا إلى الصديق بطلب النجدة ، فوجه إليهم حذيفة بن محصن ، وسيّر عرفجة البارقي إلى (مهرة) وأوصاهما بمكاتبة جيفر قائد المسلمين بمجرد اقترابهما من عمان .. ولحق بهما عكرمة بن أبي جهل .

وعلم المتنبيء ذو التاج وصول الأمداد الاسلامية ،

فحشد جموعه في منطقة (دبا) .. وعسكر المسلمون في صحار – مدينة في عمان – والتحم الجيشان في قتال شديد انتهى لمصلحة المشركين أولاً ، ولكن الله أدرك المسلمين بالنجدات من بني ناجية وعبد القيس ، فلم يمض سوى القليل حتى دارت الدائرة على أعدائهم فولوا الأدبار ، مخلفين وراءهم عشرة آلاف قتيل وغنائم كثيرة، ومن ثم مضى عكرمة بتلك النجدات ومن انضم إليهم من المسلمين باتجاه مهرة .

وكان العدو قد تجمع حول رجلين من مهرة ، ولكنهما على خلاف . فكاتب عكرمة أحدهما (شخريت) فأجابه إلى الإسلام وانضم بجموعه إلى المسلمين ، وأبى الثاني المُصَبّح أن يستجيب لدعوة عكرمة اعتماداً على كثرة جموعه ، فوقع القتال وانتهت المعركة باندحار المشركين ومصرع رئيسهم المصبّح . وقد أصاب المسلمون في هذه الوقعة أيضاً غنائم كبيرة .. وهكذا طهرت منطقة عمان ومهرة من الإرتداد ، إذ عاد من بقي من أهلها جميعاً إلى الإسلام .

وفي اليمن انتهز قيس بن مكشوح وفاة رسول الله ﷺ فارتد . وغدر ببعض المؤمنين من رفاقه ، الذين اشتركوا معه في قتل الأسود العنسي متنبيء اليمن ، وعمد إلى تشتيت الابناء – مسلمي الفرس – فنهض له قائدهم فيروز الديلمي بجموع من الثابتين على الاسلام فهزموا قيساً وأصحابه .

وفي هذه الأثناء وصل عكرمة بجنوده من مهرة ، ووصل

كذلك المهاجر بن أمية إلى نجران ، فاعتقل المهاجر قيساً وعمرو ابن معديكرب الذي كان قد انضم إلى العنسي الكذاب ، وبعث بهما إلى الصديق ، فاكتفى بتوبيخهما وأخلى سبيلهما بعد أن أعلنا التوبة ، ولم يبق في اليمن من أهل الردة سوى أصحاب العنسي ، فاجتمع عليهم قادة المسلمين وقضوا عليهم جميعاً ..

وجاء دور حضرموت ، وكان الأشعث بن قيس قد ارتد بقومه من كندة ، وخرج على عاملها زياد البياضي ، فكتب الصديق إلى المهاجر لنجدته ، فسار إليه من صنعاء ، ووافاه عكرمة بجنوده ، وقد لاذ المرتدون بحصن لهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن استسلموا مرغمين ، فأمّنَ بعضهم وقتل كبراءهم ، وبعث بالأشعث بن قيس موثقاً إلى أبي بكر .. فرأى كذلك أن يفرج عنه بعد أن أظهر الندم .

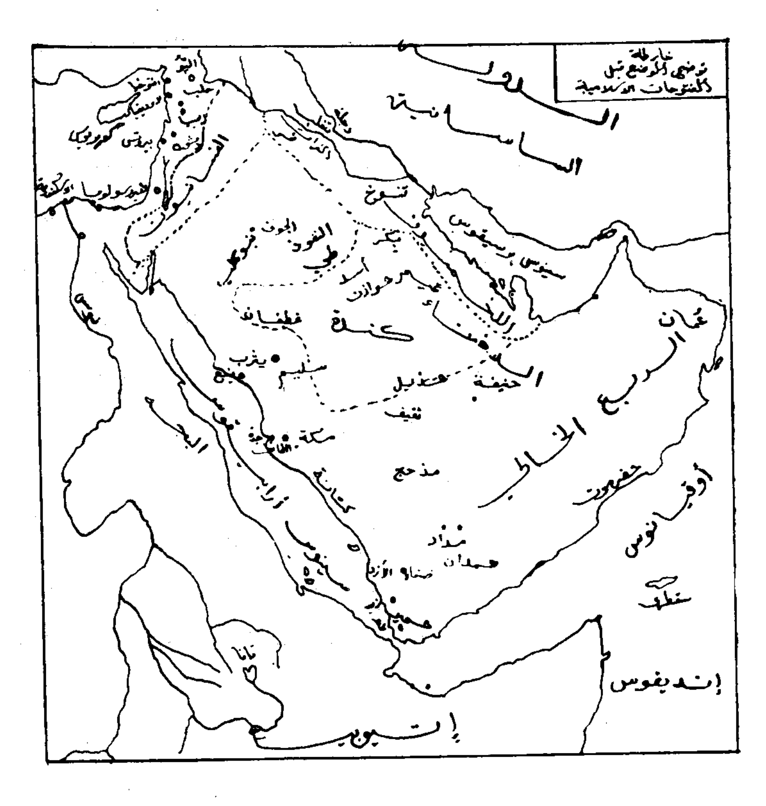
وكان بين المتنبئين امرأة نصرانية من تميم ، وقيل من تغلب ، اسمها سجاحُ ، خرجت من الجزيرة في جموع من تغلب وشيبان وإياد ، تريد غزو المدينة .. واتصلت بمالك بن نويرة أحد رؤساء تميم تطلب موادعته ، فأجابها وأغراها بمسلمي تميم ، ولكن قبائل أخرى من تميم رفضت دعوتها ودخلت معها في قتال انهزمت على أثره ، فعدلت عن المدينة ، ومالت نحو اليمامة تريد غزو مسيلمة ، فتلطف هذا بها ، لأنه خشي أن يُشْغَلَ بأمرها عن المسلمين ، وانتهى الاتفاق

بينهما إلى الزواج ، ثم لم تلبث أن انصرفت إلى الجزيرة .

وكانت موادعة مالك بن نويرة لسجاح ورطة لم يعرف كيف يتخلص منها ، ولا سيما بعد أن أظهر امتناعه عن تسليم ما في يده من أموال الزكاة إلى الخليفة ، فلما سمع بزحف خالد نحوه نهى قومه عن التجمع تحاشياً للاصطدام معه ، ثم جاءت سرايا خالد تستطلع أمر القوم ، وعادت بمالك ومعه بعض قومه . وقد اختلف الصحابة بشأنهم . فبعضهم يرى أنهم مسلمون ، وبعضهم يراهم مرتدين .. فأمر خالد بحبسهم ريثما ينظر في أمرهم ، ثم أرسل مناديه يأمر بتدفئة الأسرى ، وكانت ليلة باردة ، فحسبوا أنه يأمر بقتلهم . إذ كان الدفء في لغة كنانة هو القتلَ !. ولم يعلم خالد بالأمر إلا بعد أن فرغوا من قتلهم فقال « إذا أراد الله أمراً قضاه » .

عبر وأحداث:

وبالقضاء على فتنة الارتداد وحركات المتنبئين ذوي المطامع الخبيثة خلا وجه الجزيرة للاسلام دون منازع ، ثم فتح الطريق أمامه إلى أنحاء العالم ، ليحقق الله وعده باظهاره على الدين كله .. وقد بدأت الخطوات التالية في الاتجاه نحو العراق ، حيث يخيم الطغيان الفارسي المظلم ، ثم نحو الشام حيث ينيخ الطاغوت الرومي بكل ما فيه من غشم ورهق على صدور الناس .. وقبل أن نتابع هذه الاندفاعات الجديدة



المباركة يجدر بنا أن ننعم النظر في بعض العبر التي تقدمها لنا الأحداث ..

١ — كان الصديق شديد الصلابة في معاملة أهل الردة ، فقد أبى أن يهادنهم أو يساومهم أو يلين لهم ، وأكد على قواده بإنزال أشد العقوبات فيهم .. ومثل هذا قد يستغرب من رجل عرف بالدماثة والتواضع ولطف المأخذ!.. ولكن الحكم في

الشيء فرع من تصوره ، وقد عرفنا أن جريمة الردة دونها الجرائم ، لأنها نكسة إلى جاهلية جهلاء تريد القضاء على الأمن والعدالة والحضارة ، وبكلمة موجزة تريد القضاء على الإسلام وأهله دون هوادة !.. وقد صبت على المسلمين ضروباً من النكال الرهيب حيثما تمكنت ، فكان الجزاء من نوع العمل ، وكان إحلال العقوبة في جانب ضرباً من التأديب الزاجر للجوانب الأخرى التي هي على أهبة الانقضاض . وقديماً قيل: « الشر بالشر والبادىء أظلم » والمعتدى عليه حين لا يجد سبيلاً لدفع الموت عن نفسه إلا بقتل المعتدي لا يستحق إلا الشكر والاعجاب .

ولكن هناك أيضاً صورة أخرى للمسألة ، تؤكد أن قسوة الصديق لم تنسه الحِلم الذي لا يجانب الحكمة ؛ فقد رأيناه يعفو عن طُلَيحة الأسدي ونصيره الأكبر عيينة بن حصن ، وعن قيس بن مكشوح وعمرو بن معديكرب ، من أوائل المرتدين مع الاسود العنسي ؛ فيرد إلى ثلاثة منهم حريتهم بعد أن سيقوا إليه مكبلين ، ووقفوا بين يديه ينتظرون السيف ، ثأراً لدماء من قتلوا من المسلمين .. وأغضى عن رابعهم طليحة حين جاء مسلماً !.. وإنما فعل ذلك عندما انتهت فتنة الردّة إلى الخمود ، وأصبح الحلم مجلبة للقلوب .. وقد تجلت حكمة هذا العفو بما صار إليه هؤلاء فيما بعد ، إذ سجل بعضهم — كطليحة وعمرو — مواقف مشكورة في

حركة الفتوح . والصورتان – القسوة والحلم – على تناقضهما يتفقان على التوكيد بأن الحزم وبعد النظر كانا وراء كل عمل أتى به الصديق في حُروب الردة .

٢ – لقد اتضح من مجرى أحداث الردة أنها كانت – كما أسلفنا – امتحاناً ضرورياً لأعصاب المسلمين وإيمانهم ووحدتهم ، ثم لمدى استعدادهم للتضحية في سبيل الرسالة التي ائتُمنوا عليها . وقد كانت هذه الحروب سجلاً حافلاً بالعجائب التي أكدت أنهم في القمة من ذلك كله . ولعل أروع تعبير عن هذه الحقيقة تلك الكلمة التي وصف بها رجل من أصحاب طليحة فُرّقَ ما بينهم وبين المسلمين ، حين سأله سائل عن سبب هزائمهم أمامهم فقال: « انه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنا لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه » !. وهي صورة واقعية تعرض لنا كل فرد من أولئك المسلمين ، وكأنه أنموذج كامل للمعنى الذي أراده الصديق ، حين أوصى خالداً بقوله: « اطلب الموت توهبْ لك الحياة » !

٣ – على أننا لا ننسى مع ذلك أن طاقات الايمان ما كانت لتحقق كل هاتيك العجائب ، لو لم يتح لها من يضعها في مكانها المناسب ، ونحن لا نستطيع أن نتصور النتائج التي كان متوقعاً أن ينتهي إليها الإسلام والمسلمون لو بويع للخلافة الأولى رجل غير أبي بكر .. بعد أن رأينا اجماع الصحابة أول

الأمر على مهادنة المرتدين ، واستبقاء جيش أسامة في المدينة !
ولقد عرف كبار الصحابة ذلك الفضل لأبي بكر فأجمعوا على الاعتراف به ، وتسجيله بأقوالهم وأفعالهم .. ولن يجد القلم أبلغ في وصف هذه الناحية ، من ذلك المشهد العاطفي الذي نقله إلينا أبو رجاء البصري ــ أحد الرواة الصادقين ــ حين يقول : « دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ، ورأيت رجلاً يقبل رأس رجل ويقول له: « أنا فداؤك.. ولولا أنت لهلكنا » قلت : من الرجل ؟.. فقالوا : هو عمر يقبل رأس أبي بكر » !.

فتح العراق بعد معارك الردة

قبل الفتح :

خرج المسلمون من محنة الردة ، كما تخرج السبيكة الذهبية صهرتها النار فخلصت من الشوائب ، فازدادت بذلك ألقاً ونفاسة وقوة .

لقد طهرت الأرض العربية من رجس الوثنية ، وبرئت من نكسة الارتداد ، وسحقت رؤوس الفتنة . فلم يبق من أولئك المغامرين الذين أوقدوا نارها إلا ذكرياتهم الكريهة ، التي لا تزيد الناس إلا نفوراً من حماقاتهم ونقمة من ضلالاتهم ، التي جرّت على أتباعهم أفجع الكوارث ، وبذلك خلا وجه الجزيرة للإسلام وحده ، ولم يعد ثمة من تحدثه نفسه بالخروج عن طاعة الخليفة ، بعد أن اتضح للجميع أن الإسلام محفوف بعناية الله، لا قبل لأحد من البشر بالحؤول دون نوره ، لأن

الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق . قد تكفل أن يظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ...

ولقد رأينا الصديق في مطالع حركة الردة يخطب المسلمين فيقول لهم: (والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفي لنا عهده .. قضاء الله الحق . وقوله الذي لا يُخلف له « وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض ..) فالمسلمون إذن يعلمون أنهم على موعدة من ربهم بالاستخلاف في الأرض ، ومدعوون لحمل رسالته إلى كل مكان بلغته قدرتهم .. (قل هذه سبيلي أدعو إلى اللهِ على بصيرة . أنا ومن اتبعني) وها هي ذي الفرصة قد واتت ، فليس عليهم ، وقد اطمأنوا إلى سلامة الأوضاع في الجزيرة ، إلا أن ينطلقوا برسالة نبيهم باتجاه العراق والشام ، محررين بقية العرب من سلطان الدولتين الغاشمتين أولاً ، ومبلغين دعوة الله إلى شعوبها الغارقة في الضلالة والترف ثانياً ..

ولقد بدأ الاحتكاك العسكري بين المسلمين وفارس . منذ أن انتزعوا اليمن والبحرين وعمان من قبضتهم . بعد أن ظلت مطبقة على خناقها زمناً طويلاً .. ولا بد لأنباء انتصاراتهم المدهشة هذه أن تدغدغ أسماع الجماعات العربية . التي ما زالت تحت نفوذ فارس في الأجزاء العراقية . فتثير في نفوسهم نوازع العزة . مجددة آمالهم القديمة بالتخلص نهائياً من ذلك الحكم الذي طالما ذاقوا في ظله الأمرين .. ولا جرم أن شعوراً

كهذا من شأنه أن يشجّع المسلمين على مواصلة زحفهم إلى قلب العراق ، حيث يتوقعون أن يجدوا من أبناء عمومتهم هناك تجاوباً تفرضه أخوة الدم ، وإقبالاً على دين التوحيد ينقذهم من شقاء الشرك ، ويدفعهم إلى المشاركة في حمل مشعله خارج الجزيرة ..

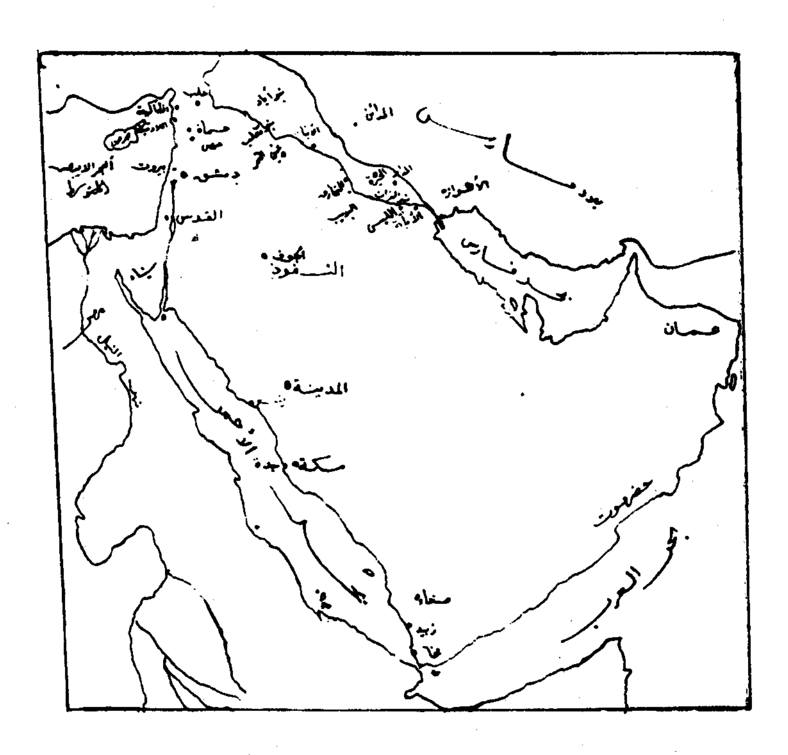
يضاف إلى ذلك ظروف الدولة الفارسية التي كانت تعانيها في الداخل ، عقيب الهزيمة الكبرى التي أنزلتها بها قوات الدولة الرومانية قبيل قليل ، ففجّرت فيها ضروباً من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية ، من شأنها أن توهن منها قدرة المقاومة . فتفتح أمام المسلمين فرصاً صالحة لتقليم أظافرها ومنعها من التفكير بالعدوان على حدودها .. فضلاً عن استعداد الشعب الفارسي نفسه لاستقبال الاسلام كمنقذ ، يردّ عليه الأمن والعدالة اللذين حُرمهما طوال قرون وقرون تحت نير المجوسية المزدكية ، التي مزقت المجتمع الفارسي ، وجعلت منه كتلاً متنافرة لا سبيل إلى توحيدها إلا بمعجزة من الله ..

أجل .. ما كانت هذه الأوضاع لتغيب عن ذهن الصدّيق وأهل شُوراه من الصحابة ، الذين كانوا يتابعون معه كل دقيق وجليل من حركات المجاهدين أثناء حروب الردّة ، وما يحيط بها ، وما يتهدّدها من الأخطار الخارجية .. ولكن الصديق واخوانه كانوا يدركون كذلك حقيقة كبيرة أخرى ، وهي أنه لا يزال لدى الفرس ذخر ضخم من العدد والعدة

والخبرة الطويلة ، من حقه أن يجعل المسلمين يفكرون كثيراً قبل الاقدام على أي عمل عسكري طويل الأمد . ضد هذا العدو المدرّب العريق .

بدء الزحف :

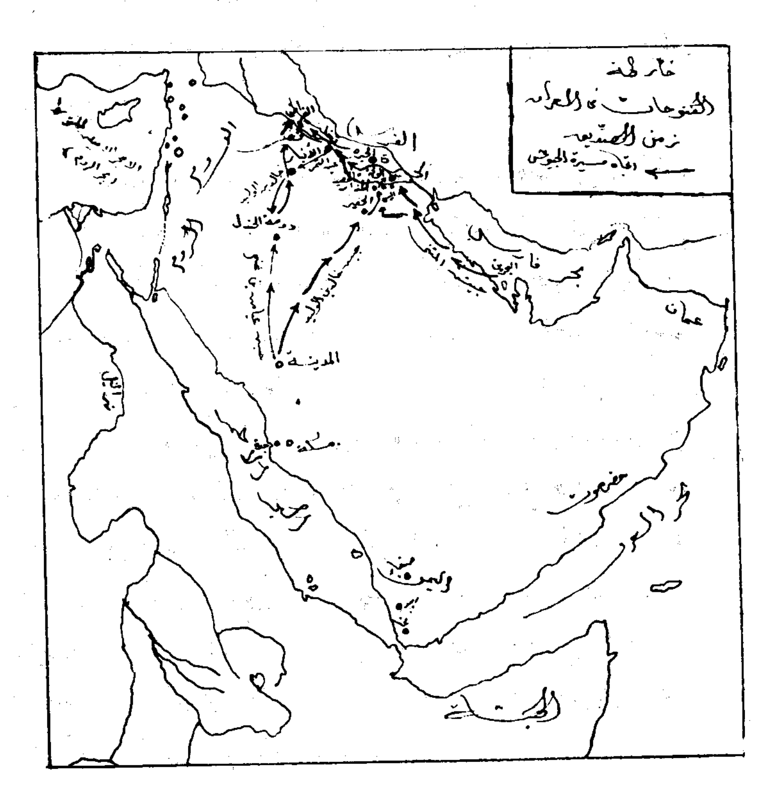
وشاء الله أن يحدث في هذه الأثناء من التطورات الحربية



ما لم يدخل في حسبان الصديق واخوانه .. فقد توافت الأنباء بأن المثنّى بن حارثة الشيباني قد نقل معارك البحرين إلى أطراف العراق ، حيث مَصَبّ دجلة والفرات من الخليج ، وقد دفعه إلى ذلك ضرورة المطاردة لقوات الفرس وحلفائهم الذين أعانوا المرتدين في منطقة البحرين ، ثم ما لبث المثنى نفسُه أن قدِمَ ، ليحدّث الخليفة بما علمه من شئون العراق وحالة القوى الفارسية هناك ، وإزاء هذا الوضع الجديد لم يكن بد للصديق من أن يعود للتفكير بقضية العراق من جديد وباهتمام أكبر ، وبخاصة بعد أن اقتنع أن العمل في العراق أيسر منه في الشام وأقرب إلى النجاح ...

وفاتح الصديق إخوانه من الصحابة في هذا الذي يحمله المثنى من الدعوة إلى تحرير العراق ، وفتحه أمام الدعوة الاسلامية .. فرأوا أن موضوعاً كهذا لا يستغني عن خبرة خالد ، فبعث بطلبه من اليمامة ، واستطلعه رأيه ، فقرر أن التعرض للفرس في نطاق العراق أمر خطير ، سيدفعهم إلى أن يقذفوا بكل طاقاتهم ضد المسلمين ، فإذا أتيح لهم أن يحققوا شيئاً من النصر ، حفزهم ذلك إلى محاولة استرداد مناطق نفوذهم الأولى بروح معنوية عالية ... لذلك على المسلمين أن لا يخوضوا هذا المأزق إلا بعد إعداد تام يستوعب إمكاناتهم جميعاً .. فإذا استطاعوا ذلك كان فتح العراق أمراً مضموناً بفضل الله ، وكان كل ما فيه من خيرات عوناً لهم على عدوهم.

وما هو إلا أن اقتنع الصديق بهذا التقرير حتى باشر أولى خطواته في طريق العمل المنشود .. فجعل للمثنى إمارة ذلك الجانب من العراق ، وأوصاه بمتابعة الدعوة وتركيزها بين العرب .. ثم ما لبث أن ولى خالداً القيادة العامة للجيوش التي أعدت لمعارك العراق .. ومن هنا بدأ الزحف للفتح الجديد ، وكان ذلك مطلعَ المحرم من العام الثاني عشر للهجرة .



إلى الحيرة :

وتتابعت انتصارات المثنى في حوض دجلة والفرات فأمر الصديق خالداً بالاتجاه لتأييده مع جنده ، وأمر عياض ابن غنم بالسير إلى دُومة الجندل لاخضاع أهلها المتمرّدين ، على أن يسير منها شرقاً إلى الحيرة ، ويسير كذلك إليها خالد بعد تحقيق مهمته ، فأيهما سبق إليها فهو القائد الأعلى والثاني له تبع .. وأمدّ الخليفة خالداً بالقعقاع بن عمرو ، وعياضاً بعبد بن عوف الحميري قائلاً في كل منهما : (لا يهزم جيش فيهم مثل هذا !) .

وكان مع خالد باديء الأمر ألفا مقاتل ، فضم إليهم ثمانية آلاف من ربيعة ومضر ، فقدم بعشرة آلاف على المثنى ، الذي كان على رأس ثمانية آلاف .. وبدأ خالد بالحفير قريباً من كاظمة على تخوم الصحراء ، فلم تلبث أن سقطت منطقتها في يده ، بعد أن قتل قائدها هرمز وهزم جنوده من الفرس شر هزيمة ، ثم لقي الفرس الذين تجمعوا للثأر من المسلمين في منطقة المذار ، فما لبثوا إلا قليلاً حتى قتل جميع قادتهم وولوا الأدبار على ظهور السفن .. ولكن العدو لم يمل القتال ، فإذا كسرى أزدشير يستعين بحلفائه من قبائل بكر النصرانية ، فتتجمع في تحشد كبير ، يمده من خلفه جيش فارسي عرمرم ، ثم وجه بهذه القوى الهائلة ناحية الولجة ، وفي الطريق انضم إليها أعداد كبيرة من العرب والفرس .

ولم يكن خالد بغافل عن حركات العدو ، فاستنفر قواته في جميع المناطق التي يعسكرون فيها ، ثم تقدم نحو العدو في تعبئة عبقرية ، فما هو إلا أن تلاقى الجمعان حتى كانت الدائرة على الفرس وأعوانهم من العرب !.

وهكذا واصل خالد زحفه باتجاه الحيرة .. ولكن نصارى العرب ساءهم أن يغلبهم أبناء عمومتهم من العرب المسلمين فاستشاطوا غيظاً ، وتفاوضوا مع الأعاجم حتى تم لهم إعداد قوى كبيرة لقتال خالد ، ولما وصلت انباؤهم إلى سيف الله جعل ينظم مؤخرته ، ثم تقدم نحو العدو ، وما إن بلغ معسكرهم في (أُلَّيْس) حتى بادأهم القتال . وكان قتالاً مريعاً ثبت فيه العدو بانتظار النجدات الموعودة . ولكن الله شاء أن يكسر شوكتهم ويحطم قوتهم ، فإذا بكمائن المسلمين تفاجئهم من خلفهم ، وجنود خالد من أمامهم !. وتضعضعت صفوفهم ، وجعلوا يتسابقون إلى الفرار ، وسيوف المسلمين في رقابهم !. وسيق الكثيرون منهم أسرى ، فأمر خالد بهم فقتلوا على بكرة أبيهم ، واختلطت دماؤهم بمياه النهر الذي سمي من أجل ذلك نهر الدم !

وبانتصار المسلمين في أُلَّيْس تحطمت معنويات الفرس وأعوانهم من العرب ، ومات كسرى ازدشير غماً وكمداً .. ومن ثم فتح الطريق أمام المسلمين إلى الحيرة عاصمة العراق العربي .. دون أن يجدوا في الطريق أية مقاومة ، وكان العدو

قد اتخذ الحيطَة اللازمة للدفاع عن الحيرة ، ولكن ذلك لم يُجدهم أمام استبسال المسلمين ، الذين كانوا كما وصفهم خالد (يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة) وبعد معركة رهيبة ألقى المدافعون بأيديهم إلى المسلمين ، فخيّرهم بين الاسلام والجزية والقتال ، فاختاروا الجزية والبقاء على الكفر !.. وهكذا صالح خالد القوم على تسعين ومئة ألف درهم ، يؤدونها كل سنة .. على أن يمنعهم المسلمون من كل عدو . وقربوا إلى خالد هدايا تكرمة له ، فبعث بها مع نبأ الفتح إلى الصديق ، فأجاز عهده وقبل الهدايا ، ولكنه كتب إلى خالد أن يحتسبها من الجزية ..

واتخذ خالد الحيرة مركزاً لقيادته ومستقراً لجنوده ، بانتظار توجيهات الخليفة ، وترك لزعمائها أمر إدارتها . فلمّا استشعر الناس في الحيرة وما حولها عدل المسلمين وحسن معاملتهم ، وبخاصة الفلاحين الذين رفعوا عن أعناقهم أغلال الاستغلال الفارسي ، وتركوهم في عملهم ينعمون بثمرات كدحهم ، التي ما كانوا ينالون منها تحت الحكم الفارسي إلا القليل .. حينئذ مال بقية الزعماء إلى مصالحة خالد ، والاستظلال في كنف العدالة الإسلامية .. ثم جاء الدهاقين يصالحونه على مثل ذلك ، حتى امتد سلطانه ما بين الخليج إلى الحيرة شمالاً ، ومن حدود بلاد العرب غرباً إلى دجلة شرقاً .

فتح الأنبار :

كانت أوامر أبي بكر إلى خالد تقضي أن لا يغادر الحيرة حتى يوافيه عياض بن غنم ! ولكن عياض وجد في دُومة الجندل مقاومة شديدة اضطرته إلى الانتظار حولها طويلاً ، وهذا ما آكره خالداً أيضاً على الانتظار طَوالَ سنة كان في وسعه أن يملأها بالأعمال الكبيرة لو أطلق له العنان ، ولهذا اشتد قلق خالد من هذا الانتظار ، وكان يسمي سنته هذه سَنَةَ النساء !. لأنه أخلد فيها إلى الراحة التي لم يخلق لمثلها سيف الله !..

وترامى اليه أن الفرس يحشدون الكتائب في الأنبار وعين التمر ، على مقربة من الحيرة ، وفي هذا ما فيه التهديد للمسلمين ، فإذا كان ممنوعاً بأمر الخليفة من الزحف نحو المدائن بانتظار عياض ، فليس بممنوع من حماية المسلمين ضد هذه الأخطار التي يُعدّها العدو حول الحيرة !.. وإنها لفرصة تنقذه من بطالة النساء التي لم يعد يطيقها !.

وهكذا تحرك خالد بقواته نحو الأنبار ، بعد أن ترك القعقاع على الحيرة ، وقدم أمامهُ الأقرع بن حابس طليعة له ، ولما بلغ أسوار الأنبار شرع بدراسة أحوال حماتها ، ثم قال لرفاقه: «أرى قوماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم.» وفعل الرماة ففقئوا ألف عين في أيسر وقت .. وبذلك دب الذعر في القوم وارتفع الصياح : « ذهبت عيون أهل الأنبار ! »

غير أنهم ظلوا معتصمين بأسوارهم اعتماداً على الخندق الذي حفروه حولها .

وراح خالد يتفقد أنحاء الخندق حتى وجد مضيقاً فيه ، فأمر فطُمر بجثث الابل الضعيفة ، ثم اقتحم بجنوده عليها إلى الأبواب فحطموها !. ولكن القائد شيراز الفارسي عرض الاستسلام قبل أن يدخلوا المدينة ، فقبل خالد عرضه ، وأبلغه مأمنه في سرية من الرجال لا متاع معهم ولا مال ، واستولى المسلمون على المدينة ، ثم صالحهم مَن حولها ودخلوا في ذمة المسلمين .

فتح عين التمر :

وكان على خالد أن يتابع عملياته العسكرية هذه لحماية مراكز المسلمين ، فاستخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر وسار بجنوده باتجاه عين التمر الواقعة على تخوم الصحراء بين العراق والشام ...

وكانت عين التمر مشحونة بالفرس وحلفائهم من قبائل تغلب والنمر وإياد . وكثير من هؤلاء كانوا مع سَجاح عند مسيرها لغزو المدينة ، وعلى رأسهم عقة بن أبي عقة ، فطلب هذا إلى حاكمها مهران أن يدع له ولمن معه من العرب قتال خالد ، فانتهزها مهران فرصة ، وترك للعرب أن ينهضوا بذلك على أن يعينهم بمن معه من الفرس عند الحاجة !..

وهاجم عقة بجموعه خالداً وهو في الطريق إلى عين التمر . فلم يستغرق الأمر إلا اليسير من الوقت حتى وقع في قبضة خالد . وولى جموعه من الأعراب منهزمين لا يلوون على شيء ، والمسلمون يتعقبونهم قتلاً وأسراً .. وما إن علم مهران بحصيلة المعركة حتى فرّ بجنوده طلباً للسلامة ، وترك الحصن لحاميته تذود عنه ؟ ولكن هؤلاء لم تلبث عزائمهم أن خارت أمام هذه البوادر . فسألوا خالداً الأمان ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه .. وكان ما أراد ودخل حصن عين التمر ، وهناك أمر بقتل عقة والمقاتلين .. وسبى وغنم ... ووقع في أيدي المسلمين أربعون غلاماً كانوا محجوزين في إحدى البيع بصفة رهائن ، لتلقين التعاليم النصرانية ، فقسمهم خالد على المبرّزين من المجاهدين. وقد شاء الله أن يُخرج من بعض هؤلاء رجالاً من كبار مشاهير الاسلام ، كمحمد بن سيرين عالم البصرة ، وموسى بن نصير فاتح الأندلس. وقد زعم بعض المؤرخين أن قسوة خالد في معاملة أهل عين التمر لا مسوّغ لها ، وبخاصة بعد أن نزلوا على حكمه ، وانتظروا رحمته .. والواقع أن قسوة خالد إنما جاءت رداً على جريمتهم في قتل بعض الصحابة غدراً ، وهو أمر لا يسعه تناسيه والتساهل في شأنه ، لئلا يكون سابقة ينسج على منوالها الأعداء الآخرون ، الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر .. فشدته على هؤلاء إنما كانت ضرباً من التحذير لكل من تحدثه نفسه بارتكاب مثل ذلك الغدر !

إلى دومة الجندل :

وكان القتال سجالا بين عياض بن غنم وحامية دُومة الجندل ، فلم تزده الأيام إلا ثقلاً وبطئاً .. وقد شعر الصديق أن هذا الموقف من شأنه أن يضعف معنويات المسلمين ، فلما جاءه الوليد بن عقبة رسولاً من عند خالد يحمل بشريات الفتح وأخماس الغنائم ، وجهه مدداً إلى عياض ، واتفق أن وصل إليه وهو في أشد المواقف حرجاً، قد أخذ العدو عليه الطريق ، وضيق عليه الحصار ، فأشار عليه أن يستمد خالداً فلم يتردد في قبول الرأي وكتب إلى سيف الله يستعديه ، فما إن اطلع على مضمون كتابه حتّى كتب إلى عياضٍ يقول :

لَبّـِثْ قليلاً تأتِكَ الحلائبُ يَحملنَ آساداً عليها القاشبُ
كتائبٌ تتبعها كتائبُ

وأسرع خالد السير بجنوده لنجدة عياض ، مخلفاً على عين التمر عُوَيمَ بن كاهل الأسلمي ، وقد سلَك إلى دومة طريقاً بين بادية الشام وصحراء النفود ، حتّى إذا دنا من دومة وترامى خبره إلى أسماع العدو دَهِمَتْهم الحيرة، وتساءلوا ما يعملون !.

كانت دومة الجندل تعج بجموع قبائل من بني كلب ومهران وغسان وغيرهم ممن هزموا أمام خالد ، فجاؤوا يطلبون الثأر من عياض وجنوده ، وكان على دومة أميرها أكيدر بن عبد الملك الذي أسره خالد عقيب غزوة تبوك ،

حين بعثه رسول الله ﷺ إلى دومة على رأس خمسمئة فارس . فأكرهه خالد على فتح أبوابها وفداء نفسه بالأموال الطائلة ، ثم ساقه إلى المدينة حيث صالح رسول الله ﷺ على الجزية .. فلم يَفُت أكيدرَ هذا معنى قدوم خالد ، وما سيجري على دومة ومن فيها من البلاء إذا أصروا على مقاومته ، لذلك بذل النصيحة للقوم بالكف عن هذه المغامرة ، وقال للجودي بن ربيعة أمير القبائـِل المحتشدة لحرب المسلمين : (أنا أعلم الناس بخالد .. لا أحد أيمنُ منه طائراً ، وأحدّ في حرب ، ولا يرى وجهَ خالدٍ قومٌ أبداً قلّوا أو كثروا إلا انهزموا .. فأطيعوني وصالحوا القوم) .

ولكن القبائل أبت إلا أن تركب رأسها مغترةً بكثرتها ، فرفضت نصح أكيدر ، فما كان منه إلا أن غادرها ليستسلم إلى خالد ، وجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض . ونشبت المعركة بين الفريقين ، فلم يطل الأمر بالجودي حتى اختطفه خالد على عادته في احتضان الأقران ، وفعل الأقرع ابن حابس مثل ذلك في وديعة الكلبي . وتغلب عياض على من يليه من القبائل ، فدبت الفوضى في صفوف العدو ، وحاولوا اللجوء إلى الحصن ولكنه ضاق بهم ، ثم أغلقه الداخلون بوجه الخارجين . تاركيهم نهباً لسيوف المسلمين يقتلون منهم ويأسرون !

ولم يلبث خالد أن اقتحم بجنوده باب الحصن فقضوا على

مقاتلته ، ثم وضعوا أيديهم على كل ما فيه ، ولم ينج من رجاله أحد عدا الأسرى من بني كلب الذين أمنهم عاصم بن عمرو والأقرع بن حابس فأجاز خالد ذمتهما ..

ولقد كان في فتح دومة الجندل مصلحة كبيرة للمسلمين ، بسبب موقعها الجغرافي (على رأس الطريق المؤدية إلى الحيرة والعراق ، وعلى أبواب وادي اسرحان الذي يؤدي إلى الشام ، ومن أجل ذلك نالت عنايةَ رسول الله ﷺ من قبل ، ثم اهتمامُ أبي بكر من بعده ، حتى وقف عياض على حصارها سنه كاملة) ولو أن دومة لم تذعن للمسلمين لبقي أمرهم في العراق معرضاً للأخطار ، ولتعذر عليهم بعد ذلك فتح الشام .

وقعتا الحُصَيّد والمضَيّخ :

انتهز المغلوبون من أهل الحيرة والأعاجم غياب خالد في دومة الجندل ، فظنوا الفرصة مواتية للانقضاض وكذلك وجد بنو تغلب المناسبة صالحة للثأر لعقة الذي قتله خالد في عين التمر ، ولم يكن في وسع القعقاع أن يعمل شيئاً أكثر من تجميد الوضع بانتظار عودة القائد العام ، فلما انتهت هذه الأنباء إلى مسامع خالد أسرع بالعودة وقد جعل على مقدمته الأقرع وعياضاً ، وحين بلغ الحيرة سير القعقاع إلى الحُصَيّد، وهو المكان الذي تواعد المتحالفون من العرب والفرس على الاجتماع فيه ، واتخاذه قاعدة لحركاتهم الثورية .. وأقسم أن يباغت هو تغلب في عقر دارها .

وسرعان ما أنهى القعقاع مهمته على خير وجه ، إذ قتل قائد الفرس ، وفرّت جموعه نحو بلدة الحُنافس تريد أن تحتمي بها ، ولكن قائدها ما لبث أن غادرها هارباً حين سمع بزحف الجيش الإسلامي !.. ولما وصلت هذه البشريات إلى خالد كتب إلى قواده ليوافوه في المضيّخ ، بلدة هذيل المتمردة.. وفي الموعد المعين فاجئوا العدو على حين غرة فقضوا عليه .

ومن ثم كان على خالد أن يَبَرَّ بقسمه فيفرغ لتغلب ، فقدم أمامه القعقاع وأبا ليلى بن فدكي ، وعيّنَ لهما ليلة يبيّتان فيها تغلب بأن يفاجئوها من ثلاث نواح ... ونفذت الخطةُ في موعدها بدقة تامة فلم يفلت من متمردي تغلب أحد !.. وجمع خالد السبي والغنائم ، فبعث بالخمس إلى الخليفة ، ومن هذا السبي اشترى علي بن أبي طالب صابحة بنت ربيعة التغلبي ، التي ولدت له الغلامَ الذي أطلق عليه اسم عمر ، تيمناً باسم صديقه وصهره عمر الفاروق !.

وقعة الفراض :

ورأى خالد أن يُتم تسياره حول الفرات ، ليوقع الرعب في قلوب ذوي النوايا السيّئة من أهل البادية ، فمضى بجيوشه المظفرة حتى وافى الفراض ، حيث تلتقي تخوم الشام والعراق .. فلم يجد خلال هذه الجولة الاستعراضية سوى الإذعان التام والخضوع المطلق .. وبوصول خالد إلى هذه البقعة تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ الفتح ، ذلك أن المسلمين

يجدون أنفسهم في مقابلة الجيوش الرومية المعسكرة في أرض الشام ، لا يفصل بينهم وبينها سوى مجرى الفرات من ناحية الغرب ، بينما يتربص بهم الفرس من ناحية الشرق ، وتنتشر القبائل الحاقدة عليهم هنا وهناك .. ما بين أولئك وهؤلاء !.

ولو كان الأمر لغير خالد لتوقعنا انسحابه من هذا المأزق اكتفاءً بحماية مكاسبه ، وللاستمرار في حراسة الأمن وتوطيد السلام في مواطن سلطته ، بانتظار الظروف الملائمة للتحرّك نحو الشام ..

ولكن سيف الله غير القادة العاديين ، فهو لا يستطيع انتظار الظروف ، توافيه ساعة تشاء ، بل يسعى هو إليها ويحاول إيجادها بوسائله الخاصة . يدفعه إلى ذلك استهانته بالخصوم بالغاً ما بلغ عددهم ، وغرامه بالقتال الذي هو أحب اليه من زواج الحسان كما وصف نفسه .. لهذا آثر خالد البقاء في الفراض لمدة شهر على مرأى من جيوش الروم ، التي لم يرضها هذا التحدي !.. واتصل الفُرس بهؤلاء الروم ، واتصل بهم حلفاؤهم كذلك من بدو تغلب والنمر وإياد يحرضونهم على المسلمين ، ويعاهدونهم على العمل معهم .. فاستجاب هؤلاء لهذه المغريات ، وزحفوا نحو خالد حتى إذا بلغوا الماء خيروه بين أن يعبر إليهم أو يعبروا إليه ، فدعاهم خالد إلى العبور .. وراح يرتب صفوفه ويخطط لعمله .. وقد أوصى رجاله أن لا يدعوا للقوم فرصة للراحة . فلما نشب القتال أدهش أعداءه

بما أبدع من مفاجئات ما عهدوا مثلها من قبل ، وحقق رجاله ما أراد منهم ، فكان الخيّالة من المسلمين يسوقون الجمع من العدو برماحهم ، حتى يقطعوه عن غيره ، ثم يأخذون بتقتيلهم .. وما هي إلا صولة وجولة حتى انكشف الأعداء مولين الدبر ، وحتى بلغ قتلاهم في هذه المعركة مئة ألف بإجماع المؤرخين !..

واستقر خالد بعد المعركة عشرة أيام في منطقة الفراض، وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة من العام الثاني عشر للهجرة أصدر أمره بالعودة إلى الحيرة . وبهذا الجهاد الذي لم ينقطع حتى خضد شوكة المتمردين والمغامرين ، دخل العراق إلى الأبد في كيان الاسلام ، وأصبح أحد المراكز الرئيسية لانطلاق الجيوش الاسلامية في طريق الفتح العالمي ، الذي ركز ألوية التحرير الإلهي فيما بعد ما بين هضاب الصين إلى جبال البيرنيه في أوربة ، تحقيقاً للعهد الرباني الذي ذكّر الصديقُ به إخوانه يوم كان الخوف يملأ قلوبهم على المدينة .. (وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنهم في الأرضِ ..) !

المأثرة العظمى في جمع القرآن العظيم

اقتراح الفاروق :

روى الإمام البخاري عن زيد بن ثابت الأنصاري كاتب وحي رسول الله ﷺ أنه قال: « أرسل إليّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة ، فإذا عمر جالس عنده فقال أبو بكر : « إن عمر قد جاءني فقال : «ان القتل استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى ان استحرّ بالقراء في المواطن فيذهب بكثير ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .. انك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، فقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبعِ القرآن فاجمعهْ .. » قال زيد : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر: «هو والله خير .. » فلم يزل أبو بكر يراجعني . حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر .. فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع واللخاف

وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة ، أو أبي خزيمة الأنصاري (لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم ..) فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ..)

فها هنا خبر وافٍ عن جمع القرآن العظيم ، وظروف جمعه ، والغرض منه وتهيب الصديق وزيد أول الأمر ذلك ، لأن رسول الله ﷺ لم يفعله ، ثم اقتناعهما بمشروعيته ومضيّ زيد فيه حتى تم جمعه كاملاً كما نزل . وقد تضافرت الروايات الصحيحة على أن عمر قد اقترح على الصديق جمع القرآن ، إثر ما رأى من كثرة القتل الذي حلّ في حملة القرآن من كبار الصحابة في معارك مسيلمة ، وكان ذلك في السنة الأولى من خلافة الصديق .. فكان الاقتراح مفاجأة للصدّيق عبّر عنها بهذا الاستفهام الذي لا يدل على الانكار ، ولكنه ينبيء بعجب الخليفة وحيرته : (كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله !) بيد أن عرض عمر كان معقولاً ، لا يتطلب أكثر من اقتناع الصديق بأنه لا يخالف عمل رسول الله ، حتى يرتضيه ويسعى لتحقيقه . وقد حصل هذا الاقتناع إذ تبيّن أبو بكر أن جمع القرآن ليس إلا متابعة لعمل رسول الله ﷺ ، الذي لم يغادر هذه الدنيا إلا بعد أن اطمأن إلى حفظه في الصدور والسطور ... وكل ما يطلب اليه هو جمعه في مكان واحد بعد أن كان متفرقاً لدى الصحابة ، بين كاتب لسورة، أو كاتب لسور أو آيات، أو كاتب لجميع السور .. وبين حافظ مثل هذا ، وحافظ مثل ذاك ، وحافظ لجميع السور .

وهؤلاء قلة يتهددها الموت في معارك الردة ، فقد بلغ عدد الذين استشهدوا في معركة اليمامة ألفاً ومئتين من المسلمين ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار حملة القرآن .. وقبل ذلك أصيب عدد غير قليل من هؤلاء القراء ، إذ غدر بهم عامر بن الطفيل يوم بئر معونة ، ومن يدري فقد يذهب القتل بأعداد أخرى منهم في غزوات قادمة ، وفي ذلك خطر أي خطر على كتاب الله !..

وعلي أيضاً :

وقد رأينا علي بن أبي طالب قبل ذلك يحبس نفسه ستة أشهر في داره ، لا يغادرها إلا للصلاة عقب وفاة رسول الله ، وقد أوضح للصديق أنه إنما يدفعه إلى ذلك انشغاله بجمع القرآن . وفي كتاب (الاتقان) للسيوطي أنه قال : (رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثتني نفسي ألاّ ألبس ردائي لصلاة حتى أجمعه) فقهم من هذا أن فكرة جمع القرآن كانت تراود غير عمر من الصحابة ، وتعليل علي بما رأى من زيادة فيه لا يعني أنها زيادة تغيير على الأصل ، بل يمكن تأويلها بأنها إدخال بعض التفسيرات خلال كلمات القرآن ، كما ورد في بعض الروايات أن عائشة رضي الله عنها قد أمرت مولاها أبا يونس باثبات (العصر) في مصحفها عقيب قوله تعالى (والصلاةِ الوُسطى) وما ذلك إلا تفسير لمقصود (الوسطى) بين الصلوات ، وقد ورد من عدة وجوه أنهم كانوا يقرؤونها « (والصلاة الوسطى

وصلاة العصر) بالواو وبدونها . ويقول صاحب فتح القدير : فقد ورد ما يدلّ على نسخ تلك القراءة ج ١ ص ٢٣٠ وعلى هذا يمكن تخريج كلمة علي (يزاد فيه) أنها إشارة إلى أن بعضهم كان يكتب في مصحفه أو يقرأ مثل هذه العبارة دون أن يعلم أنها منسوخة .

هذا إلى أن مجرد إقحام التفسير الفقهي خلال كلمات القرآن يعتبر بالنسبة إلى صدر الإسلام طَريقة مألوفة ، كما هو الشأن في الحديث الشريف ، الذي كثيراً ما تقرؤه ممزوجاً بتعليقات راويه ، حتى ليكاد يغم علينا لولا القرائن ولولا انتباه العلماء .. وهي طريقة أولية بالنسبة إلى ما نجري عليه اليوم ، من إثبات التعليقات في ذيل الصفحة التي يقع فيها مشاراً إليها بعلامة مكررة أو رقم مكرر . والذي يُهوّن ذلك لديهم هو اعتمادهم في حفظ الكتاب العزيز على الاستظهار بالدرجة الأولى ، وعدم وفاء الخط وحده بمهمة الحفظ ، يضاف إلى ذلك ما كان عليه الحرف العربي آنذاك من بدائية تجعل قراءته أمراً عسيراً ، بسبب عدم التنقيط الذي يميز الحروف بعضها من بعض ، حتى ليمكن قراءة الكلمة على عدة وجوه ، ثم لعدم استقرار القواعد الإملائية على وضع نهائي ، حتى كانت الكلمة الواحدة ترسم على أشكال مختلفة باختلاف المواطن ، دون تعليل سوى ما قيل من مراعاة الترتيل كما نرى في (شجرت الزقوم) بالتاء المبسوطة و (كشجرة طيبة) بصورة الهاء ، وكحذف الألف من مثل (السموات)

وكإبدال الألف واواً في مثل (الصلوة والزكوة) .. وكل ذلك في الرسم العثماني للمصحف ، وهو الرسم الذي كتب به زيدُ بن ثابت ، الأمر الذي يعتبر من العوامل الهامة في ما درج عليه المسلمون من اعتبار التوقيف في ضبط اللفظ القرآني شيئاً أساسياً في صحة القراءة ، لا تغني عنه أية محاولة شخصية لضبطها بالاعتماد على الرسم وحده ، كما يحدث عادة في قراءة أي كتاب آخر .. وعلى هذا يكون وضع التعليقات الفقهية خلال الآيات أمراً غير ذي ضرر ، ما دام الحكم الأخير للتوقيف والحفظ الذهني ، اللذين لا يختلط عليهما الاصل بالتفسير. ولكن علياً رضي الله عنه مع ذلك يخشى جريان الناس على هذه الطريقة في كتابة القرآن ، لأنه يعلم أن هذا ، ان لم يكن اليوم بالأمر المخوف ، فقد يأتي في الغد ناس من العرب وغيرهم، لا يعلمون من القرآن عِلمَ حَمَلته الأولين ، فيستبهم الأمر عليهم ، فلا يتم التمييز بين الوحي وتفسيره المقحم بين سطوره !

التعليل المعقول :

بقي أن نتساءل ما الذى بعث التردد في صدر الصديق وزيد بإزاء اقتراح الفاروق باديء الرأي ، فحسباه ضرباً من البدعة التي لا مسوّغ لها من عمل الرسول ﷺ ، والتي أعلن الصديق في أول خطبة له أنه عدوها الألد !.. الراجح في نظر العقل أن الصديق رضي الله عنه إنما تردد في قبول

الفكرة من حيث كونها تدعوه إلى تجميع سور المصحف كلّها في مكان واحد ، بعد أن كانت هذه السور متفرقة عند حفظتها وكتبتها ، كل يحفظ منها أو يكتب ما يستطيع .. ولا شك أن مجرد إحداث هذا التجميع يعتبر في ظاهر الأمر مخالفة لطريقة رسول الله ﷺ ، الذي لم يفعله ، ولم يأمر به .. ولكن هذا التردد لا يمكن أن يستمر طويلاً أمام الحجة القاطعة لكل تردد ..

أجل إن الرسول ﷺ لم يأمر بدمج القرآن في مجموعة من الصحف ،لأن عملاً كهذا لا يعقل أن يحدث ما دام حياً ، وما دام الوحي متصلاً ،لأن المفروض في هذه الحالة ألا يتعيّن موضع السورة النهائي إلا بعد تمام الوحي ، ولا يتوقع تمامه إلا باستيفاء رسول الله ﷺ أجله .. وهذه مقدمة عقلية نتيجتها اللازمة أن يكون جمعه على هذا الوجه بعد وفاته ﷺ ، ووفق الترتيب الذي أثر عنه في الإقراء ، وفي الإملاء وفي الصلاة .. ومن هنا يكون اقتناع الصديق ثم زيد بمشروعية هذا العمل أمراً طبيعياً لا يصح غيره ، بناء على أنه امتداد لخطة صاحب الرسالة نفسها ، وتحقيق لتنظيم يكون بنفسه صورة من معنى الوعد الالهي القائم أبداً في قوله تعالى (إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُون) .

آيات السور :

ولا بد هنا من السؤال عن وضع الآيات في سورها متى كان ذلك ومن فاعله ؟ لأن المعلوم أن ترتيب الآي في السورة الواحدة كثيراً ما يفارق تاريخ النزول . فآيات مدنية ضمت إلى آيات مكية ومكية إلى مدنية ، وبعض الآي وضعت بعد آي سبقتها في مناسبة النزول .. وقد رأينا بعض المستشرقين يريدون أن يجدوا من ذلك ثغرة يتسللون منها لإثارة الشبهات حول هذا الموضوع ، فيزعمون أن ترتيب الآيات في السور هو أحد الأغراض التي قصد إليها من جمع القرآن ، وأنه من الخير لو رتبت وفق تاريخ النزول إذن لكان أجدى في تاريخ السيرة وتتبع أحوال النبي ﷺ !.. وهذه الشبهات تسقط كلها عندما نتذكر أن آيات كل سورة قد رتبت في مكانها بإشارة من رسول الله ﷺ ، وأن الصحابة كانوا يتلقون منه السورة سماعاً في الصلاة أو الإقراء .. وهذا عبد الله بن مسعود يقول : (لقد أخذت من في – فم – رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة ..) وفي الصحيحين أنه (جمع القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد) وقد أكد القرطبي أن خمسة آخرين من الصحابة قد ثبت بالتواتر جمعهم للقرآن في عهده ﷺ منهم علي وعثمان .. وقد تواتر عن رسول الله ﷺ أنه كان يعرض القرآن على جبريل مرة

في كل عام ، فلما كان عام وفاته عرضه عليه مرتين .. ومن هنا يتبين أن ترتيب الآي في كل سورة كان قد تم قبل وفاته صلوات الله عليه وسلامه ، وقد أجمع المؤرخون على أن هذا الترتيب كان واحداً في جميع المصاحف ، التي كتبت قبل فراقه وبعده . فلم يبق والحالة هذه من مجال للشك في أن تجميع السور في مكان واحد كما أسلفنا هو المقصود من جمعه في عهد الصديق ، وذلك حرصاً على صيانته من أي نقص .

ترتيب السور :

أما ترتيب السور على النسق المشاهد لدينا ، من حيث البدء بالفاتحة ثم البقرة ، فما يلي ، فليس هو مما تولاه زيد ولا كلف به .

وقد اختلف العلماء في ما إذا كان ترتيب السور على ما جاءنا من عهد عثمان (رض) توقيفياً من قبل رسول الله ﷺ ، أو هو اجتهادي جرى عليه الصحابة منذ أيام عثمان أو قبله. والمعروف أن بعض مصاحف الصحابة لم توافق ترتيب عثمان ، ولو كان ذلك أمراً توقيفياً لما خالفته ، فلم يبق إذن إلا كونه اجتهادياً صرفاً ..

على أن هناك من يقول بأن التوقيف حاصل ولكنه غير شامل .. فبعض السور صدر ترتيبها عن رسول الله ﷺ وبقي سائرها للاجتهاد ، ولهم على ذلك أدلة معقولة عرض

لها الباحثون في هذا الموضوع . ثم يأتي الرأي القائل بأن ترتيب السور جميعها قد تم بالتوقيف على الوجه الذي انتهى الينا ..

ومهما يكن من شيء فالناتج من هذا وذاك أن زيداً لم يتولّ ترتيب السور فيجمعه للقرآن،وإنما تولى —كما بسطنا— مجرد جمع سوره في صحف ، جعلت في عهدة أبي بكر (رض) فلما توفي حُفظت لدى عمر ، فلما استُشهِد أُودعت لدى ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما .. حتى جاءت خلافة ذي النورين فاستحضرها لينقل عنها النسخ التي كتبها لنفسه وللأمصار ، حين بدأ الاختلاف على قراءة القرآن بين المسلمين .

ولا نستطيع تحديد الزمن الذي استغرقه عمل زيد في ذلك الجمع الذي كلف به من قبل الصديق ، وقد ورد في بعض الروايات أنه استغرق بقية عهد أبي بكر وشطراً من عهد عمر .. غير أن في رواية البخاري التي صدرنا بها هذا البحث ما يفيد أن الجمع قد تم في حياة أبي بكر . وقد روي عن علي كرّم الله وجهه قوله : (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر .. هو أول من جمع كتاب الله ..) فقي ذكره المصاحف ما يوهم أنه يتحدث عن نسخه ضمن ملف واحد . وما هذا يريد ، وهو يعلم أن ذلك من عمل عثمان ، وإنما يريد تقرير فضل الخليفة الأول في خدمة القرآن مطلقاً .. لأن جمعه لسوره هو الأصل لجمعها الثاني في

المصاحف في عهد الخليفة الرابع ، الذي اتخذ من صحف الصديق إماماً لمصاحفه ، ومن كاتبه زيد جامعاً لها .. فلا عجب أن يقال إن كل كتابة لمصحف بعد الصديق إنما تسجل فضل سبقه إلى هذا الخير ، لأن (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من تبعها) .

أهمية هذا الجمع :

وأخيراً فإن جمع أبي بكر (رض) للقرآن العظيم سيظل في مقدمة مآثره العظيمة . بل رأس مآثره جميعها .. فلئن كان في قمعه حركة الردة إقرار للتوحيد . وقضاء نهائي على جذور الوثنية في جزيرة العرب .. ولئن كان في فتحه العراق والشام تحرير لهما من سلطان الظَّلَمة ، وإدخال لهما في حظيرة الاسلام والعربية إلى الأبد .. ان في جمعه القرآن لَضمانَ الاستمرار للاسلام نفسه ، والسببَ الأولَ والأخيرَ في بقاء العربية لساناً ووجوداً في أرض العرب ، من شواطىء الأطلسي إلى أقاصي الخليج ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وانه لفضل عظيم . حري بكل مسلم وكل عربي أن يحفظه ويقدره لأبي بكر الصديق ..

نهاية المطاف في حياة الصديق

وفاة الصديق :

خمسة وعشرون شهراً ونيف من الجهاد المتواصل في رعاية المسلمين وقيادة الجهاد لاستئصال الردة . ولدفع الاسلام إلى العراق والشام ، واعداد المسلمين للانطلاق بألويته في دنيا الله الواسعة المتلهفة لنوره . وقبلها عشرون عاماً من الدأب الشاق في خدمة أهداف الدعوة مع رسول الله ﷺ .. أقل ما توصف به أنها أعباء تنوء بها كواهل العصبة أولي القوة ، فكيف بجسم ضئيل أجنأ لا يستمسك إزاره !..

إن الحياة محدودة الامتداد من قِبَل واهبها ، لا يؤخرها شباب ولا تقدمها شيخوخة . ولكن الذي خطط وقائع الحياة . وحدد آمادها . قد جعل لكل جهد أثراً في طاقة الأحياء ومصايرهم . ومثل هذا الجهد الضخم . ينهض به

ذلك الجسم الهزيل ، حري أن ينتهي به إلى الهبوط ، وهذا ما حدث . فلقد أصيب الصديق بوعكة لم يحتملها جسمه أكثر من أسبوعين . وكان ذلك . حسب رواية عائشة . عقب اغتساله في يوم بارد . إذ حم فلزم البيت . لا يستطيع خروجاً إلى الصلاة ، حتى وافاه الأجل ..

وقد رُوي في سبب وعكته أن يهود قد دسوا له سماً في طعام ، أكل منه مع الحرث بن كَلَدَةَ الطيب . فما زال يعمل في جسمه طوال سنة حتى أدركه الموت !.. ويمكن التوفيق بين الخبرين بأن نكسة الاغتسال أضعفت جسمه ، فمكنت للسم أن يعمل فيه دون أن يجد مقاومة .

ولقد كان الصديق على توقع للموت منذ واجهته تلك النكسة مغتبطاً بلقاء ربه ، يزيد في شوقه إليه أنه يأتيه وهو في السن التي قبض فيها رسول الله ﷺ . ولهذا كان يرفض عرض نفسه على الطبيب ، وقد أجاب من رغّبه في ذلك بقوله : (قد رآني) ! فلما سأله عما قال له ، أجاب : (قال لي إني فعال لما أريد) ! وإنما يشير بذلك إلى أنه لا يعرض نفسه إلا على الله .. ثم لم يمنع ثقل المرض أبا بكر أن يظل مشغول البال بشئون المسلمين ، شديد القلق على مستقبلهم ، لأنه كان يخشى اختلافهم بعده على شئون الحكم . ذلك الاختلاف الذي سيكون أشد من سابقه ، لأن الإسلام اليوم أوسع رقعة . وذوي الجهاد في سبيله أكثر عدداً . فإذا

حدثت الفرقة لم تقتصر على مكان كسقيفة بني ساعدة ، ولا على بلد كالمدينة المنورة ، ولكنها ستمتد إلى أبعد وأوسع وأخطر .. إلى مكة والطائف واليمن والبادية والعراق والشام !.

استخلافه عمر :

لذلك كان على الصديق أن يركز اهتمامه على أمر الخلافة بعده، وقد أصبح مقتنعاً أن السبيل الوحيدة لاجتناب أعاصير الخلاف هي في أن يجمع المسلمين على رجل يرتضونه ويطمئن إلى كفايته لمواصلة قيادة السفينة . وشرع الصديق في استشارة كبار الصحابة ، حتى انتهى إلى التثبت من رضاهم عن عمر ، وهو إنما آثره بذلك لما خَبَره من كفايته وقوة احتماله وتجرده للحق . ولعل من أهم الدوافع إلى هذا الاختيار تلك الرؤيا التي لا بد أن يكون الصديق قد سمع حديثها من رسول الله إذ يقول : (بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليه دلو ، فنزعت منه ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوباً أوْ ذنوبين ، وفي نزعه ضعف والله يغفر له .. ثم استحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطَن .)

ومثل أبي بكر الذي عرف بدقة الاستنباط لمعاني الرؤى النبوية ، وإشاراتها العميقة ، لا يفوته أن يرى حظ عمر من تلك الرؤيا ومعناها العظيم ، الذي يؤكد أهميته في قيادة المسلمين من بعده ..

ولهذا كله رأيناه يصرف النظر إلى الفاروق من أول يوم أصيب فيه ، إذ وكل إليه أمر الصلاة بالناس ، فلم يبق إذن سوى إعلان استخلافه ... وهكذا أملى وصيته به على عثمان ، ولم يكتف بكتابة ذلك ، بل أطل على المسلمين من حجرته ، وهم في المسجد يقول : أترضون بمن أستخلف عليكم ؟.. ولما أحس موافقتهم قال : إني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . » فقالوا : سمعنا وأطعنا .

وعقب إملائه كتاب الاستخلاف شعر أنه ألقى عن عاتقه حملاً ثقيلاً ، ولكنه لا يدري المصير الذي سينتهي اليه من بعده .. انه الغيب المجهول الذي لا يحيط به سوى الله ، فليَعتذر إلى الله، وليضرع اليه بهذه المناجاة الحارة : (اللهمّ إني لم أُرد بذلك إلا إصلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ؛ فعملت فيهم بما أنت به أعلم .. واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقومهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم ... ولم أرد محاباة عمر .. أَصلحِ اللهم واليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح رعيته .) !

ومن خلال هذا الدعاء نستبين طوية الصديق ، والسر الذي حفزه إلى الاستخلاف ، وإلى اختيار عمر بخاصة لهذا الاستخلاف ، فهو يفعل ذلك خشية الفتنة ، وثقة منه بكفاءة الفاروق .. الذي جاءت خلافته برهاناً ناصعاً على بعد نظر الصديق ، وخبرته العبقرية بالرجال . وأراد الصديق أن

يتخفف من كل أثقال الدنيا ، وهو على أعتاب الآخرة ، فقال لمن حوله : (انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي ..) .

ثم شاء أن يستكمل عدة الموت ، فسأل عائشة عن عدد الأثواب التي كُفن بها رسول الله ﷺ ، فقالت : ثلاثة . فقال : (اغسلوا ثوبيّ هذين وابتاعوا لي ثوباً آخر .. الحي أحق بالجديد من الميت ، إنما هي للمُهلة والصديد !.) وأوصى أن تقوم بغسله امرأته أسماء بنت عميس مستعينة بولده عبد الرحمن ..

وبينما هو يعالج سكرات الموت وصل المثنّى بن حارثة من العراق ، واستأذن على الصديق فأذن له وأصغى لحديثه عن تطورات الموقف ، وتوافرِ فرص النجاح أمام المسلمين . وعرض المثنى على الصديق أن يمدّه بالعائدين إلى الإسلام من أهل الردة ، فلم يشغله ما هو فيه عن الاهتمام بهذا الطلب ، وأوصى عمر بتنفيذه ...

وشاء الله أن يغيب آخر شعاع من حياة الصديق ، عقيب غروب شمس الاثنين الثامن من جمادى الآخرة ، للعام الثالث عشر من الهجرة ، وهو يتلو قول رب العالمين : (توفّني مسلماً وألحقْني بالصالحين) !. وتم غسله حسب وصيته . وحُمل على السرير نفسه الذي حمل عليه رسول الله ﷺ إلى المسجد .. وبين المنبر والقبر المطهر وضع الجثمان

الزكي ، حيث أم المسلمين بالصلاة عليه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، ومن ثم نقل إلى حجرة عائشة ، ليدفن إلى جانب رسول الله ﷺ كما أوصى ، وقد ألصق لحده بلحده ، وجعل رأسه إلى كتفه ، ثم وُوري التراب مودعاً بثناء المؤمنين ، محفوفاً برحمة الله في جوار أحب الخلق إليه !.

أثر وفاته وتأبينه :

وقد جددت وفاته في نفوس المسلمين ذكرى وفاة الحبيب المصطفى ﷺ ، فعم الأسى كل مكان ، وسرى النبأ في الصدور كلفح الجمر ، يرجف القلوب ، ويهيج الدموع ..

وانطلقت الألسن تصف مآثره ، وتعدّد مناقبه ..

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (نضّر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله رزءك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلّمَ الله عليك ، توديع غيرِ قاليةٍ لحياتك ، ولا زاريةٍ على القضاء فيك .) !

وعقد الخطب لسان الفاروق فلم يزد على قوله :

(يا خليفة رسول الله !.. لقد كلفت القوم بعدك تعباً ،

ووليتهم نصباً، فهيهات من شق غبارك، فكيف اللحاق بك!.)

وجاء علي مسرعاً يبكي وكان مما قاله: «كنت والله أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيماناً، وأحفظهم على رسول الله، وأحدبهم على الإسلام، وأحماهم عن أهله، فجزاك الله عن الإسلام، وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً .. صدّقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وسماك الله في كتابه صديقا فقال: (والذي جاءَ بالحقّ وصدّقَ به ..) يريد محمداً ويريدك: كنت كما قال رسول الله: ضعيفاً في بدنك، قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين .. فلا حرّمنا الله أجرك ولا أضلّنا بعدك) !.

ولا شك أن في هذه الكلمات على قلتها، تجري بها ألسنة ثلاثة من سابقي الرعيل الأول، شهادةٌ تسجل بأبلغ إيجاز عِظَمَ العِبء الذي نهض به الصديق في خدمة الإسلام والمسلمين، ثم عظم الخصائص التي ميز الله بها هذه الشخصية الفذة، فكانت بها مثلاً عالياً للمؤمنين، ونبراساً هادياً للعالمين.

من مناقب الصديق:

من العسير تحديد المناقب التي ميّز الله بها الصديق، سواء في الأخلاق أو الذكاء أو ضبط النفس ضمن نطاق الأوامر

الآلهية ، فإن في نشأته قبل الإسلام وبعده ما يوحي بأن رعاية الله كانت تهيئه لعمل عظيم ، لا يطيقه من الرجال إلا من أولاهم الله مثل هذه الرعاية .. وقد تتبعنا بعض هذه الخصائص في عرضنا لحياته وأعماله ، وحسبنا أن نشير منها في الجاهلية إلى تحريمه الخمر والشعر على نفسه حفاظاً على كرامته ، وبعداً بنفسه عن التبذل والتعرض للخصومات والمحالات ، وما صيّرته إليه تلك الأخلاق من منزلة عالية في قريش ، بحيث لا يُرد له ضمان ولا تُخفر له ذمة .. ورأينا أعماله في الإسلام نماذج من الفضائل تكاد تشبه المعجزات : تفان في نصرة رسول الله يسترخص كل شيء من مال ونفس وأهل ، وإدراك للحق لا تزلزله نازلة بالغة ما بلغت ، حتى ولو كانت هذه النازلة وفاة رسول الله !. ثم تصميم على التنفيذ لمقتضيات الاسلام لا تثنيه العوائق ، ولو تخطفته الطير ، ولو جرت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين ، وفيهن ابنته عائشة !..

ثم شجاعة لا تبلغها الأحلام ، يرفض بها كل مساومة تنتقص حقوق الله ، مهما بدا هذا الانتقاص صغيراً بنظر غيره ، ثم تدفعه للوقوف وحيداً في وجه السيل العرم من أهل الردة ، لا يبالي أسقط على الموت أم سقط الموت عليه !..

هذه مواقف تعجز الرجولة أن تأتي بمثلها ، وإن دلت فعلى أننا أمام رجل ذي امتياز فوق المألوف من الممتازين. على أن من الخير أن نختم بحثنا عن حياة الصديق بطائفة من

الملحوظات السريعة ، تضع بين يدي القارىء خطوطاً دقيقة تساعده على تتبع هذه الخصائص العليا ممتدة من أعماق تلك النفس الموهوبة ، إلى أعمالها البارزة في واقع الحياة .

• • •

١) روى الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله عندما رأى خوف الصديق عليه في الغار يوم الهجرة قال له : (ما ظنك يا أبا بكر باثنين اللهُ ثالثُهما !)

٢) وفيه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين قبيل وفاته : (سدوا الأبواب كلها إلا باب أبي بكر) .

٣) و (إن من أمن الناس عليّ في صحبته وما له أبا بكر) .

٤) و (إن الله بعثني اليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله) .

٥) و (أن النبي ﷺ صعد أحُداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم ، فقال : اثبتْ أحُد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان ..) .

٦) وفيه أن عمراً بن العاص سأل رسول الله ﷺ : (أي الناس أحب إليك ؟ فقال : عائشة . فقلت : ومن الرجال ؟ فقال : أبوها) !

وقد رأينا اهتمام رسول الله ﷺ بتوجيه الأنظار إلى الصديق وهو على فراش الموت ، حتى استقر في أذهان الكثيرين من الصدر الأول أنه يدعو المسلمين إلى مبايعته ، من ذلك خبر الحسن البصري الذي أقسم أن رسول الله لم يفارق الدنيا إلا بعد أن استخلف أبا بكر !. ومن المستندات النبوية لهذا الرأي ما رواه البخاري في صحيحه كذلك : (أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه . قالت : أرأيت إن جئت ولم أجدك ! كأنها تقول : الموت ! قال ﷺ ان لم تجديني فاتي أبا بكر)

وأورد القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري قوله : (وقد أطبق السلف على أنه – أبا بكر – أفضل الأمة ، حكى الشافعي وغيره إجماع الصحابة على ذلك . وقد رأينا كيف شارك بيت الصديق كله في خدمة الرسول ﷺ يوم الهجرة ، متوزعين العمل كل في نطاقه ، ونقلنا قول العلماء بأن إنكار صحبة الصديق مؤد للكفر ، لثبوتها بنص القرآن . ونذكرك هنا ببركة إسلامه وإقبال الكبار من السابقين إلى الإسلام على يده ، وإعتاقه السبعة الضعفاء الذين كانوا يعذبون في الله ، حتى روي عن عمر قوله : (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ..) يعني بلالاً .

وفي سند قوي عن النزال بن سبرة الهلالي : قلنا لعلي : (يا أمير المؤمنين .. حدثنا عن أبي بكر .. قال : ذاك امرؤ

سمّاهُ الله صدّيقاً على لسان جبريل ومحمد .. كان خليفة رسول الله على الصلاة ، رضيهُ لديننا فرضيناه لدنيانا) .
وعن عمر : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، ووافق ذلك ما لاً عندي فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته ، فجئت بنصف مالي ، فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وجاء أبو بكر الصديق بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر .. ما أبقيت لأهلك ؟.. قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شيء أبداً .) وعن أبي صالح الغفاري : أن عمر كان يتعاهد عجوزاً كبيرة عمياء ، فيستقي لها ويقوم بأمرها ، فكانَ إ جاء وجد غيره قد سبقه اليها فأصلح ما أرادت . فجاءها غير مرة فلا يسبقه اليها، فرصده عمر فإذا هو بأبي بكر ، وهو يومئذ خليفة .. وعن نافع عن ابن عمر أن أبا بكر (كان يحلب للحي أغنامهم ، فلما بويع للخلافة قالت جارية من الحي : الآن لا يُحلب لنا منائحنا . فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمري[1] لأحلبنّها لكم . فكان يحلب لهن،فربما قال للجارية: أتحبين أن أرغي لك أو أصرح ؟.. فأي ذلك قالت فعل .)

علم الصديق :

جاء في الحكم المأثورة أن عقل العاقل مخبوء وراء لسانه وأن المرء بأصغريه : لسانه وجنانه ، ذلك لأن كلام الإنسان

---

(١) العمر بفتح العين : الحياة والدين والعبادة ومراد القسم هنا أحد الأخيرين.

ترجمان قلبه وصورة لبه ، فهو مجهول ما دام صامتاً ، حتى إذا نطق عين مكانه بين الأعلَين أو الأدنَين .

ونحن نقرأ كلام الصديق فنحكم بأن هناك عقلاً دقيق الفطنة ، عميق الملاحظة ، ينتزع الحكمة من صميم الواقع الكوني والنفسي ، فيرسلها مفحمة مؤثرة ، في إيجاز ، يصور تفوقه في اختيار التعبير المناسب ، دون تكلف أو تعمل . قال في خطبته الأولى : قد وليت عليكم ولست بخيركم .. ولكن نزل القرآن وسن النبي فَعلَّمنَا وعلمنا .)

فكأنه يؤكد بذلك مقياس التمايز بين الناس على أساس العلم .. والعلم بنظر الصديق لا يتم إلا بالاطمئنان التام إلى حقيقة المعلوم ، لذلك كان من أبرز مميزاته العقلية التحفظ في كل ما لا يصل به إلى القطع ، خصوصاً عندما يكون الأمر متصلاً بالقرآن !. سئل ذات يوم عن معنى (الأبّ) في قوله تعالى : (وفاكهةً وأبّاً ، متاعاً لكم ولأنعامكم) وإذْ لم يجد له به علماً عن رسول الله في تفسير هذه الكلمة لم يتوقف عن الجواب فقط بل قال لسائله : (أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟)وأنت تستغرب من الصديق أن يستهول الأمر إلى هذا الحد ، بإزاء كلمة تكاد تكون قاطعة الدلالة على العشب الذي هو من خصائص الأنعام ، إذا لوحظ موقعها من الترتيب ، في سياق الآيتين وما فيهما من التقابل : (فاكهة لكم وأب لأنعامكم ..) ولكن شخصية الصديق المرتبطة بمبدأ الاتباع

دون الابتداع ، تمسكه عند حدود ما وصل اليه ، وقد قصر علمه عن الاحاطة بنوع هذا الأب من بين سائر النبات، فلم يسمح لنفسه بتجاوز ما لم يعلمه عن طريق الوحي ،ولا عن طريق العربية [1] .. وهذا الضرب من التثبت من أقوى الدلائل على دقة الصديق في تحري الحقائق ، وعلى امتيازه العقلي .. ولقد تجلت هذه الدقة في جميع أعماله التي تطلبت إعمال الفكر وسبر الأغوار للوصول إلى أبعاد الحقائق الفقهية .. ومن هذا القبيل فهمه للاستثناء في الخبر النبوي (أمرت أن أقاتل .. إلا بحقها) وهو الذي غفل عنه عمر وغيره من عباقرة الصحابة !. وقريب من ذلك تعليمه للرجل الذي سأل عن الثوب فأجاب :«لا .. رحمك الله .» فقال له الصديق : قل : لا ورحمك الله ...»

وعن أبي سعيد الخدري قال : (خطب رسول الله ﷺ في مرضه الأخير فقال : ان الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال : فبكى أبو بكر !.

قال أبو سعيد فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله عن عبد خُيِّر فكان هو المخيَّر ، وكان أبو بكر هو أعلمنا !..

وبلغه ذات يوم أن ناساً من المسلمين يخطئون في فهم

---

(١) يقول شيخ الاسلام ابن تيمية (رح) في التعليق على كلمة الصديق – وعمر– في الأب : «وهذا كله محمول على أنهما ارادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتاً ظاهر لا يجهل لقوله تعالى : «فأنبتنا فيها ... الآية» من مقدمته في أصول التفسير

قول الله : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم ، لا يَضُرّكم من ضلّ إذا اهتديتم ..) فيعطلون بخطئهم مبدأ الإصلاح الاجتماعي القائم على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فوقف يعلمهم قائلاً : (ان الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها ، ألا وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، والمنكر فلم يغيروه ، عمهم الله بعقابه .) ومما أوصى به يزيد بن أبي سفيان يوم شيعه لفتح الشام (.. وإذا قدم عليك رسول عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم ، حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به .. وأنزلهم في ثروة عسكرك .. وكن أنت المتولي لكلامهم .. وأكثِرْ حرسَك وبدّدهم في عسكرك ، وأكثر مفاجآتهم في محارسهم بغير علم منهم !..)

فمثل هذه التوجيهات الدقيقة لا يمكن أن نستوفي معرفة قيمتها حتى نتذكر أنها من صنع رئيس دولة حديثة العهد بالتنظيم العسكري ، فهو لا ينقل أفكاره تلك من كتاب ، ولم يتلقها في كلية حربية، وإنما يبدعها من دراسته الشخصية للأحداث التي تعرض له وتدور حوله !.

وكذلك في موقفه من تحركات جيوشه ، أثناء حروب الردة والفتوح ، صورة عميقة التعبير عن سعة إدراكه ، ونفاذ بصره ، وخبرته العريضة في فنون القتال ، وفي شئون الرجال ! . لقد فرض على قوّاده ألاّ يغادروا مكاناً ، ولا يقاتلوا عدواً إلا بعد علمه وإذنه ، وقد رأينا أثر هذه الإرادة

في تجميد موقف خالد في العراق طوال سنة كاملة كان يسميها خالد سَنَةَ النساء ، وقد التزم خالد أمر قائده فحبس طاقاته الفائضة خضوعاً للنظام ، وثقة منه بحكمة الصديق الذي كان يقول فيه: (ان رأي أبي بكر يعدل نجدة الأمة)وقد أثبتت الحوادث أن توجيهات الصديق لقواده ، كانت أحد العوامل الكبرى في ما أحرزوه من الانتصارات في جميع الميادين ، سواء في العراق أو الشام أو المواطن الأخرى ..

وطبيعي أن أثره في هذا الجانب من العمل الحربي ، كأثره في الجانب الآخر من الاستنباط الفقهي ، إنما يعطينا صورة متكاملة للعقلية الفذة التي جعلت الصديق نسيج وحده بين العباقرة ..

ولقد شاء الله أن يتوج أبو بكر جهاده المظفر باستخلاف عمر .. فكان هذا الاستخلاف برهاناً أخيراً على خبرته العجيبة بالرجال ، إذ جاءت خلافة الفاروق امتداداً لفضائل سلفه العظيم ، ويداً بيضاء طوق بها عنق الأمة بعد موته ، كما طوقها بأياديه الكثيرة أثناء حياته .

ورضي الله عن عبد الله بن مسعود الذي ناب عن إخوانه بتسجيل هذا الفضل عندما قال : (أفرس الناس – من الفِراسة – ثلاثة .... وأبو بكر عندما استخلف عمر) .

مراجع البحث :

صحيح البخاري .

القسطلاني على البخاري .

فتح القدير .

أسد الغابة،

البداية والنهاية لابن كثير .

مختصر السيرة .

الطبري .

الاتقان للسيوطي .

الاصابة والاستيعاب، اتمام الوفاء .

الصديق لهيكل .

عبقرية الصديق للعقاد .

أبو بكر لمحمد رضا .

فهـرس

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

الكتاب	ملاحظات	
١ — فضائح المبشرين	رد على شبهات	نفذ
٢ — اليوبيل الذهبي	دراسة عن المجتمع النصيري	نفذ
٣ — المرشد فى الأدب العربى	بالاشتراك مع بعض المدرسين	نفذ
٤ — نـــار ونـــور	مجموعة شعرية	نفذ
٥ — من تراث الأبوة	مسرحية تاريخية	نفذ
٦ — قصص من الصميم	مجموعة قصصية	نفذ
٧ — صور من حياتنا	مجموعة قصصية	نفذ
٨ — فارس غرناطة وقصص أخرى	مجموعة قصصية	نفذ
٩ — (الأدب العربى) للسنة الأولى من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة	بالاشتراك مع أحد الأساتذة	نفذ
١٠ — الادب العربى للسنة الثانية الجامعة		
١١ — دروس من الوحى	(من مطبوعات الدار السعودية للنشر)	
١٢ — قصص وعبر	(من مطبوعات الدار السعودية للنشر)	
١٣ — مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام		
١٤ — تأملات فى المرأة والمجتمع		
١٥ — مشاهد من حياة الصديق		
١٦ — همسات قلب	مختارات من شعر المؤلف	
١٧ — قصص من سورية	طبعة ثانية	
١٨ — مدينة التماثيل		
١٩ — قاهر الصحراء		
٢٠ — ثورة الحرية	طبعة ثانية صدرت فى مجلد واحد	
٢١ — الكواكب الأحد عشر	طبعة ثانية	
٢٢ — قصتان من الماضى	طبعة ثانية	
٢٣ — من أجل الإسلام وحواريات أخرى		
٢٤ — الآيات الثلاث		
٢٥ — كلمات من القلب		
٢٦ — بطل من الصعيد وقصص أخرى		
٢٧ — دماء وأشلاء		
٢٨ — قصص لا تنسى		
٢٩ — أفكار إسلامية		

رقم الإيداع ٣٥١٧ / ٨٨

الترقيم الدولى ٩٧٧ - ٧٣٠١ - ٢٢ - ٩

دار النصر للطباعة الاسلامية

٢ ، أ ، شارع نشاطي ــ شبرا

القــاهرة